

الفصل الأول

الخطابة العربية قبل الإسلام

المبحث الأول

الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية العربية قبل الإسلام

كان العرب قبل الإسلام أميين في الأغلب لا يقرأون ولا يكتبون، إلا أن هذا لا يعني أن القراءة والكتابة كانت معدومة، بل موجودة في البادية والمدن. ولقد نزل القرآن بهذه اللغة فتعززت بالإسلام، وأصبحت لغة الدين والدولة فلم تقف بوجهها لغة في أي بلد وصله العرب شرقاً وغرباً فغدت وعاء الثقافة والحضارة العربية والإسلامية وبها كتبت العلوم على اختلاف أنواعها والأدب بأنواعه وأشكاله، فضلاً عن الموثيق والعهود سواء بين الحكام العرب، أم الحكام الأعاجم من المسلمين وغير المسلمين. وكانت للعرب معارف لا ترقى إلى درجة العلوم حصلوا عليها بالملاحظة والتجربة اليومية، وتناقلوها جيلاً بعد جيل، مثل معرفة النجوم وهذا لا يعني أن هناك دراسات أو معرفة منظمة في علم الفلك بل كانت معلوماتهم بسيطة تعتمد على النظر والمشاهدة اليومية وعرفوا المدارك الفلكية وأسماء الكواكب والنجوم لحاجتهم إليها في أسفارهم وسط الصحراء القليلة المعالم لكي يهتدوا بواسطتها، ومن أجل تحديد المواسم والأعياد ومواعيد تجارتهم^(١)

و كذلك سموا أولادهم بأسماء النجوم فسموا بدرًا وقمرًا وهلالًا والذبرقان وعطارد وزهرة وسهيلة والثريا وغيرها فوردت في شعرهم كقول امرئ القيس^(٢)

كانَ الثريا علقت في مصامها

بأمراس كتان إلى صم جندل

(١) ينظر: فروخ، عمر، (الكتور)، تاريخ الجاهلية، ط ١، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٨١)

ص ١٤٩

(٢) ينظر: امرؤ القيس، امرئ القيس بن حجر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن الحارث (ت سنة

٨٠ هـ / ٥٤٥ م) ديوان امرئ القيس، دراسة وتحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار

المعارف، (مصر، ١٩٦٤ م) ص ١٩

وأدرك العرب قبل الإسلام/ أن السنة القمرية اقصر من السنة الشمسية وانها لا توافق اختلاف الفصول الاربعة فأوجدوا النسئ أي (الكبس) وهو زيادة شهر قمري على كل ثلاث سنوات؛ إلا أنهم لم يحافظوا على النسئ في أوقاته الصحيحة فاضطرب التقويم، فاصبحوا يقدمون أو يؤخرون في الأشهر الحرام، فلذلك حرّمه الإسلام كما في الآية الكريمة (انما النسئ زيادة في الكفر)^(١)، وقد عرفوا بعض الامور الطبية نتيجة لتجربتهم الحياتية والحاجة الى العلاج، فضلا عن الملاحظة الشخصية كما عرفوا أمراض الحيوان لاسيما الجمال والخيول فكانت نهم خبرة باجزاء جسمها وعلاجها وما يصيبها من أمراض، وقد ذكر الجاحظ في كتابه أمورا عن معرفتهم بالبيطرة^(٢). ومن معارف العرب التي اكتسبوها في حياتهم ونتيجة لبيئتهم الفراسة والقيافة؛ اما الفراسة فهي معرفة الانسان من حيث أخلاقه وطباعه من خلال النظر الى شكل الانسان وصفات ملامحه وأعضائه، والقيافة تتبع الأثر في الارض لمعرفة آثار الانسان والحيوان لمعرفة أثر من ظل عن طريق القافلة أو طريق عدوهم. فضلا عن عنايتهم بالانساب سواء كان ذلك للانسان ام للجمال. ولقد اشتهر من نسائهم دغفل^(٣) بن حنظلة الشيباني، وأبو اياس النصري، وعطارد ابن حاجب بن زرارة كما عرف الخليفة الراشد ابو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه بعلمه بالانساب والأيام^(٤). وقد دلت العرب على معارفهم التي حصلوا

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٧

(٢) ينظر: الجاحظ ، أبو عثمان ، عمر بن بحر بن محبوب الكناني (ت ٢٥٥ هجري / ٨٦٨ م)

كتاب الحيوان ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط ٣ ، مكتبة المثنى ، (بغداد ، ١٩٦٩) ج ٦ ، ص ٢٩ . ابن خلدون ، عبد الرحمن الحضرمي ، (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م). المقدمة ،

بيروت ، ١٩٨٨ م) ص ص ٩١٨ - ٩١٩

(٣) ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ٢٨١ فما بعدها

(٤) ينظر: ابن عبد البر ، أبو عمرو يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) الاستيعاب في

معرفة الاصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة النهضة ، (مصر ، د. ت) ج ١

ص ٢١٨.

عليها حسبما اسلفنا بالملاحظة والتجربة اليومية بحكمهم التي صاغوها وتناقلتها الأجيال، وقد حفظت لنا كتب الامثال والحكم طائفة منها مثل كتاب (جمهرة الامثال) للعسكري، (ومجمع الامثال) للميداني و(المستقصى في الامثال) للزمخشري. هذا فضلا عما ورد في اشعارهم مما يستشهد بها الناس في كل زمان كحكم^(١) زهير بن أبي سلمى ولييد العامري وطفرة بن العبد البكري وحكيم الصحراء واشهر خطباء العرب اكنثم ابن صيفي. فضلاً عن ذلك فان للعرب أسواقاً قبل الإسلام تعقد في اوقات معينة من السنة لكي يعم السلام فاتخذوا أربعة اشهر حرم من السنة، ثلاثة منها متواليه، وهي ذو القعدة و ذو الحجة و محرم ثم شهر مفرد يأتي بعد المحرم بخمسة اشهر وهو رجب لا يكون فيها قتال. وهذا مما يخفف القتال^(٢) والعداوة بين القبائل مرتين في كل عام، وأشهر الاسواق سوق عكاظ في مكان يسمى نخلة على مقربة من مكة، أما بقية الاسواق فهي دومة الجندل والمشقر وهجر وعدن وصفاء والرابية وذو المجاز وذبا وصحار فيكون مجموعها عشرة^(٣). ومن صور الحضارة العربية قبل الإسلام البناء الاجتماعي الذي يتكون من وحدات تسمى كل منها القبيلة وكانت هذه القبائل منتشرة في البوادي والقرى والمدن وهي جماعات من الناس ينتمون الى أصل واحد إلا ان وحدات القبيلة كانت تتخلخل بعوامل مختلفة اذ لم يكن المجتمع العربي القبلي انذاك انطوائيا ولا منعزلا في الجزيرة العربية ولا اطرافها، بل كانت القبائل مجموعة متحركة لا تكاد تتخذ شكلا معيناً حتى يعرض لها من ضرورات الصلوة ومصالح الجوار مكان لهذه الحركة التي سادت حياة العرب قبل الإسلام أثر في الحياة اللغوية والأدبية وفيها الخطابة. فمن المؤكد ان نقلة الافراد وهجرة القبائل وأتلافها في أحلاف متعددة لم يكن من

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والقبين ج ١، ص ٣٦٥، الجبوري، يحيى، الجاهلية، ص ٩٩

(٢) ينظر: فروخ، عمر، (الدكتور)، تاريخ الجاهلية، ص ١٦١

(٣) ينظر: علي، محمد الكرد، الإسلام والحضارة العربية، ط ١، (بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨)،

الامور العارضة التي لا تترك اثارها العميقة من لهجات هذه القبائل وفي تقريب واضح بين اللهجات، اضافة الى ان حركة، القبائل هذه أثرت في الأسواق ومواسم الحج ومواسم التجارة مما يؤدي الى التقارب اللغوي بين هذه القبائل ثم الانصهار بين هذه القبائل عند حركة التحرير أي الفتوحات الإسلامية بعد مجيء الإسلام^(١) فضلا عن أمور أخرى كانت لها أهميتها في وحدة العرب لغويا وجنسيا ودينيا وهي:

(١) الزواج فقد يتزوج رجل بامرأة من قبيلة أخرى وهذا ما حصل كثيرا وأكدته القرآن الكريم (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير)^(٢)

(٢) النقل فقد ينقل رجل من قبيلة نسبه الى قبيلة أخرى.

(٣) الاستلحاق ، قد يكون للقبيلة عبيد من العرب او غير العرب فيزوجوه من نساءهم وقد يكون لرجل عربي جوارى غير عربيات فيلدن له فيلحق أولاد تلك الجوارى بنسبه.

(٤) بالولاء قد يحتاج رجل الى حماية فيلجأ الى قبيلة قوية فيصبح مولى لها ثم يدخل نسبه مع الأيام في نسبها.

(٥) بالحلف قد يتحالف فريقان من قبيلتين و يتعايشان ثم يصبحان مع الايام كأنهما قبيلة واحدة و يدخل نسب القبيلة الاضعف الى نسب القبيلة الاقوى^(٣). وكان الذي يجمع بين أفراد القبائل هو الشعور بالصلة و فائدة التعاون على تحصيل الرزق ورد العدوان الذي يحصل على إحدى القبيلتين ونيل الحكم بينهما مما يؤدي الى زيادة عدد أفراد القبيلة ومن ثم تزداد قوتها.

(١) ينظر: فيصل، شكري ، المجتمعات الإسلامية الاولى ، ص ص ٢٢-٢٩

(٢) سورة الحجرات آية رقم (١٣)

(٣) ينظر: علي ، جواد ، (الدكتور)، المفصل في تاريخ قبل الإسلام ط١ ، مكتبة النهضة ، (بغداد، ١٩٦٩)، ج٧، ص ص ٦-٩. فروخ ، عمر ، (الدكتور) ، تاريخ الجاهلية ، ص ١٤٩

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسية للعرب في عصر ما قبل الإسلام، فقد كان على رأس كل قبيلة شيخها وهو رجل تختاره القبيلة من بين أفرادها وتقدمه للرئاسة عليها ويتصف بمواصفات خاصة كونه كبير السن وذا حكمة وشجاعة وذكاء ووفاء وتضحية وثروة فضلا عن شرف أصيل، ورئيس القبيلة هو قائدها في الحرب، والخطيب هو لسان حالها.

أثر الخطابة في عصر ما قبل الإسلام

من خلال دراسة الخطابة والتعرف على أشهر خطباء العرب قبل الإسلام والمواضيع أو الأغراض التي تناولتها خطبتهم نجد ان هذه الخطب كان لها اثر كبير في وحدة وتماسك القبيلة وتعاونها وقوتها وهيبتها امام القبائل الاخرى، او الأقسام المجاورة للعرب في ذلك الوقت، وهذه الخطب سواء كانت خطبا طوالا، أو قصارا فعلى الرغم من تعدد انواعها، وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة، او الوفاة، او المناظرات، او المفاخرات او قسما منها كان هدفها الدعوة الى الإسلام ونبذ الخلافات والغاء الحروب، والدعوة الى السلم، وكذلك كان للخطبة اثرها في التماسك الاجتماعي، وخاصة في الزواج سواء كان زواج اشرافهم ام ابنائهم فتؤدي الى تماسك الأسرة و وتعطي للمرأة أحيانا الشرف الكبير لان ترتبط برجل من قبيلة أخرى. وكانت الخطب في الأسواق ذات هدف سامي وشريف لان الخطباء يقومون بالنصح والارشاد والتوجيه فهم ينصحون قومهم ويرشدونهم وينصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين والكف عن الحرب و اراقة الدماء. فكان الخطباء يدعون الى الصلح واصلاح ذات البين وأن تضع الحرب اوزارها وكذلك يخطبون في وقادتهم على الأمراء، اذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة، أو المناذرة، فيحبيه متحدئا بلسان قومه، ويدعمون رئيس القبيلة ويقوون^(١)

(١) ينظر: الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، (مصر، ١٩٧١م) القسم الأول ص ١٧١١.

مركزه الاجتماعي والسياسي بين قبيلته. وكان من عادة العرب وخصوصا في
 خطب النساء يلقي الخطيب خطبته بهذه المناسبة، فيقول الجاحظ من عادة العرب
 في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب^(١). وكان الخطيب احيانا يرد
 على من يتعرض في خطبته الى أعراض الناس فنبذوا هذا السلوك المنحرف
 وردوا على مثل هذه الخطب التي قد تظهر في مجتمع قبلي معين وبذلك تتحسر
 هذه الخطب ويقضى عليها ولا تتشيع بين الناس، لان العربي يأنف ويحتقر من
 يتعرض لإشاعة الفاحشة في اي قبيلة. ويرفضون ذكر مثالب القبيلة الأخرى حتى
 وان كانت مخالفة لهم وبينهم ثأر أو خلاف. وهذا هو دور الخطيب الملتزم الذي يبني
 القيم والعادات الحسنة في قبيلته ويرفض قطعاً ما يخالف العرف العام. وقد تصدى
 الخطباء لمثل هذه الحالات التي تؤدي الى افساد المجتمع وقضوا على الرذيلة واقاموا
 الفضيلة في المجتمع المكي او مجتمع المدينة أو اطراف الجزيرة. فهم يرفضون ما
 يسيء الى الجوار ويهتمون بالأعراض ويحافظون عليها، وهذه من عادات
 العرب النبيلة في عصر ما قبل الإسلام فكانوا يوظفون خطبهم في خدمة القبيلة
 وافراد القبيلة وتماسك القبيلة وقيمون علاقات اجتماعية طيبة وحسنة مع القبائل
 الأخرى.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، الأغاني، تحقيق: عبد

الستار احمد فراج، دار الثقافة، (بيروت، ١٩٥٦م) ج٤، ص ١٤٦

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ج١، ص ١١٦

المبحث الثاني

الخطبة - تعريفها - قيمتها - أغراضها - أنواعها - أجزائها

الخطابة في اللغة اسم مصدر مشتق من الفعل خطب على وزن فعل فعيل. وقد عرفها صاحب لسان العرب^(١) لمؤلفه ابن منظور، وكذلك المنجد في اللغة والأدب والأعلام، ومختار الصحاح^(٢) لأبي بكر الرازي وغيرهما في مادة خطب، وخاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وخطب على المنبر خطبة بضم الخاء وخطابة ويخطب بضم الطاء فيها واختطب، وخطب من باب ظرّف صار خطيباً. فهي إذا عند اللغويين: هي اسم للكلام أو الكلام المنثور المسجع ونحوه، وهكذا عرفها اللغويون. أما علماء المنطق فقد عرفوها بما يأتي: هي صناعة علمية يمكن بسببها اقناع الجمهور في امر يتوقع حصول التصديق به قدر الامكان. وبنفس المضمون لهذا التعريف عرفها الرضا مظفر في كتابه المنطق والخطيب عند علماء اللغة هو: ناقل الكلام أو حسن الخطبة، ويتوخى من الخطابة تهيئة النفوس لقبول ما يريد اقناعهم به، ان مضمون هذه الجمل يوضح لنا معنى الخطابة والخطيب الذي نريد ان نلح منه، ولو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدنا لفظة الخطابة قد وردت في قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)^(٣) فالخطيب هو رجل الخطبة، والتي تتألف من ثلاثة عناصر: هي المقدمة والعرض والخاتمة. ويعرفها الدكتور أحمد محمد الحوفي أستاذ الأدب العربي في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة بالأزهر (هي فن مشافهة الجمهور

(١) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ابن الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الانصاري (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) لسان العرب ، تحقيق يوسف خياط ونديم مرعشي طبع دار لسان العرب ، (بيروت ، ١٩٦٨ م) . ص ١٠ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١

(٢) ابو بكر الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت بعد سنة ٦٩١ هـ / بعد سنة ١٢٩١ م) ، مختار الصحاح ، المكتبة الأموية ، (دمشق، ١٩٧٨ م) ، ص ١٨٠ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٦٣

واقناعه واستماتته).^(٢) فلا بد من مشافهة، والا كانت كتابة أو شعرا مدونا ولا بد من جمهور يستمع والا كان الكلام حديثا أو وصية ولا بد من الإقناع وذلك بان يوضح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده. واقصد بالإقناع ذلك النوع الخطابي المؤثر. ولا بد من الاستمالة والمراد بها ان يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف شاء ساراً أو محزنا مضحكا أو مبكيا، داعيا الى الثورة أو إلى السكينة. وهذه هي أسس الخطابة. في كل عصر وزمان من نشأتها وتطورها وازدهارها في عصورها المختلفة الى يومنا هذا مشافهة، وجمهور، وإقناع، واستمالة وقد عرفها الدكتور مصطفى جواد في كتابه الأساس في تاريخ الأدب العربي بانها^(١) بأننى هي مخاطبة جمهرة من الناس في شأن من الشؤون الدينية أو الاجتماعية أو السياسية، بكلام فصيح جليل المعاني، ويستثير العقول ويستميل القلوب، كما عرفت الخطابة قديما بأنها^(٢) (فن الإقناع، ولا يقصد بالإقناع مجرد الإقناع العقلي القائم على المنطق وحده، كما هو الشأن في العلوم الطبيعية والرياضيات، انما هو الإقناع الممزوج بالعاطفة واثارة المشاعر).

ثم ان هناك تعريفاً آخر للخطابة، اذ يعرفها الدكتور المرحوم نوري حمودي القيسي في (كتابه تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام)^(٢) وأخوه الدكتور عادل جاسم البياتي والأستاذ الدكتور مصطفى عبد اللطيف بان الخطابة هي ظاهرة أدبية معروفة لدى جميع الأمم فليس هناك من مجتمع لم يعرفها). وهو يسعى نحو تناميها واستكمال كيانه والاخذ بأسباب حضارته ومجده، سواء أكان ذلك المجتمع صغيراً أم

(٢) ينظر: الحوفي، أحمد محمد، (الدكتور)، فن الخطابة، ص ص ٥-٦

(١) ينظر: الدكتور مصطفى جواد، الأساس في تاريخ الأدب العربي، ص ص ٩٢-٩٤

(٢) مجموعة من المؤلفين، تاريخ الأدب العربي الحديث، ص ٢٣٣

(٢) ينظر القيسي، نوري حمودي، (الدكتور) مع اساتذته اخرون، تاريخ الادب العربي قبل الاسلام

دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٨٧م) ص ص ٣٦٠-٣٦١

كبيراً، كالمجتمع العربي الذي يسكن أكبر شبه جزيرة في العالم تضم إليها أطرافاً بعيدة تضرب في عمق آسيا وتمسك من إفريقيا بالرأس والعنق، وإذا أرادت أمة أن تفتخر بخطباتها وسحر لغتها فالعرب في هذه الأمم، والعربية على رأس هذه اللغات. ولا تزال قصص الخطب التي فتحت مدناً بل بلاداً وقارات باكملها تدور في ذاكرة البشر ترافقها صورة (حرق المراكب) من قبل القائد الخطيب ووضع المقاتلين أزاء الموت غرقاً أو الهلاك عطشاً في الصحراء أو النصر باقتحام العدو وهي معادلة صعبة.

قيمتها: الخطابة منذ كانت تعدُّ سلاح المجتمع الانساني في سلمه وحربه وفي ترقيته والاسراع به نحو المثل الاعلى الذي يجب ان يقصد اليه. فليس بدعا أن كانت بلاغ النبيين الى أمهم في الاصلاح والتوجيه والارشاد ونشر الفضيلة والخير، والدعوة الى عبادة الخالق ونبذ عبادة المخلوق، والراح الذي يسكبه القواد في نفوس جنودهم قبيل المعركة فيسرعون باسمين إلى قتال أعدائهم، وغصن الزيتون يلوح به دعاة السلام في عالم كثر به العدا والخصام، والقوة الحاسمة التي يقود بها الزعماء والمصلحون الاجتماعيون أمهم إلى حياة أرقى وأبقى، ولسان الاحزاب السياسية تنشر به دعوتها وتظفر به على خصومها، ونورا يهدي القضاة الى العدالة وتبرئة المظلوم، والقصاص من الباغي. فهي عدة الزعماء والقادة والساسة. وتستند إليها الديمقراطية وتعتمد عليها الدكتاتورية، ويتسلح بها المؤتمرون في المحافل الدولية وبصعد عليها النواب، ورؤساء القبائل والقادة العسكريون الى قمة الشهرة وذبوع الاحدثة، ويرتقي بها الدعاة الى الصيت الطائر. وقد روى لنا التاريخ صوراً كثيرة للقادة الخطباء من حرق المراكب ووضع المقاتلين أمام الموت أو النصر، فيجعل جيشه لا يملك امتياز الاختيار بل يرمي بنفسه في لهيب المعركة، ومن هنا تظهر بوضوح قيمة الخطابة. وقد عزا الباحثون هذه المواقف الخطابية العالمية الى العرب وخطباتهم يوم كانوا يهيئون للخطبة مناخاً ملائماً يثيرون فيه حماسة المقاتل مع الكلمة المقاتلة، والجو النفسي المناسب. فضربوا مثلاً

بخطيب عربي تائر قديم طرد المحتل من الجنوب العربي وهو سيف بن ذي^(١) يزن، ومعد يكرب^(٢) ابن أبي مرة، وكان قد احرق المراكب بعد ان نزل بجنده على الساحل والقي خطبته ملتهبة فيهم ليحرر الأرض العربية من يد محتليها. وكذلك فعل خالد بن سلمة^(٣) المعروف بالسفاح لانه سفح روايا قومه وقال لهم: ان حالوا بينكم وبين الماء ظفروا بكم. وقد فعل ذلك لكي يجعلهم لا يعتمدون على مائهم ولكي يقتتلوا بشجاعة حتى لا يحال بينهم وبين الماء، ولم تصل لنا خطبة السفاح وقد تأثرت أمم كثيرة بهذه المواقف الخطابية الذكية للقادة العسكريين العرب فاستلهموا منها روح المقاومة وقلدوا أصحابها في جميع العمليات الحربية فضمنوا لانفسهم نتائج الحرب وعليه فقد كان يلهب حماسة الناس، ويلعب بمشاعرهم

(١) سيف بن ذي يزن: هو سيف بن ذي يزن بن اصيلح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري من ملوك العرب ولد بصنعاء وقتل سنة ٥٠٠ ق هـ / ٥٧٤ م. ينظر: ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهبي النحوي (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) السيرة النبوية ، تحقيق : د. همام سعيد و محمد عبد الله أبو صعليك ، ط١ ، مكتبة المنار ، (الاردن ، ١٩٨٨ م) ، ج٢ ، ص٢٢. ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، (بيروت ، ١٩٦٧) ج١ ، ص١٥٨

(٢) معد يكرب بن أبي مرة: هو معد يكرب بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ملك جاهلي يمني ولد بمدينة قزة بحضرموت كان منكا على قيس عيلان قتلته قضاة وتوفي سنة ٦٠ ق هـ . ٥٦٥ م ، (ينظر: ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد، (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م). المرزباني، أبو عبيدة محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)، معجم الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي (دمشق، ١٩٦٠ م) ص ٤٦؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطابع دار المعارف، (مصر، ١٩٦٢ م) ص ٤٢.

(٣) خالد بن سلمة السفاح: هو خالد بن سلمة المخزومي المشهور بالسفاح من قریش وهو من الخطباء المشهورين ، الجاحظ، البيان والتبيين ، ج١، ص٣١٤ .

محولاً إياهم الى الموقف الذي يراه صحيحاً ومطلوباً فيستدر عطفهم ودموعهم، وقد يثير غريزة الثأر أو الانتقام أو يرددهم الى انسانياتهم، فهو بذلك يشبه الشاعر في عمله واختصاصه، إلا أن الشعر اقترن بالحماسة أكثر من اقترانه بالمناسبات السلمية بينما اقترنت الخطبة بالحرب والسلم على حد سواء، بل كانت مهماتها السلمية تفوق كل أنواع المهمات الأخرى في عصر ما قبل الإسلام. وقد استعان العرب بالخطبة لحاجة العرب يومئذ إليها والاستعانة بها، بينما أخذ تيار الشعر ينحسر أحياناً ويبرز دور الخطيب أكثر

أغراضها: كان العرب الخطباء يستخدمون الاسجاع عند المناقرة والمفاخرة، وكانوا يستعملون المنثور والمرسل في خطب الصلح وسلّ السخيمة، وعند المعاقدة والمعاهدة، وكانهم عرفوا لونين من الخطابة لونا مسجوعاً ولونا مرسلًا، وفي خطبهم المرسله كانوا يعمدون الى ما يثير السامعين من كلم بليغ. وعليه فان الخطابة لها أغراض اجتماعية ودينية وسياسية وقبلية فقد كانت الخطابة تثير العزائم واستنهاض الهمم، ولهذا نجد ان الخطابة القبلية كانت تؤدي غرضها في خدمة أبناء القبيلة للدفاع عن حقوقهم وإعطاء أفراد القبيلة الدور البارز باعتبارهم عليّة القوم، فتراعي في غرضها التي ترمي اليه خدمة أفراد القبيلة ومراعاة كل المناسبات الدينية وتحاكي طبيعة حياتهم، لان البدوي أو أي فرد في القبيلة يميل الى الحرية ويرفض الاستبداد والظلم والتعسف والاضطهاد. وأما أغراض الخطابة الدينية فقد كان للقران الكريم أثره العظيم في تطور الخطابة. أما قبل الإسلام فكان سجع الكهان منتشرا بشكل واسع وواضح في المجتمع. وكان الخطيب غرضه ان يخدم الطقوس الدينية التي كان يمارسها العرب قبل الإسلام ولما جاء الإسلام بدستوره العظيم القرآن الكريم كان له الاثر الكبير في تطور الخطابة، لان الخطباء أخذوا في محاكاة أسلوبه والافتباس من آياته. والعوامل التي ساعدت على ازدهار الخطابة هي: العصبية القبلية والتمزق التي عانت منه العرب نتيجة للحروب الدائرة، وكان هذا أقوى سبب لكي يشمر الخطباء عن سواعدهم ويتفنتوا في خطبهم لينجحوا في رأب

الصدع ولم الشمل وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف. وكذلك الحروب التي خاضها العرب الفاتحون. والقدرة على الارتجال في القول مما يهيئهم ذلك للنبوغ في الخطابة. ثم أصبحت الخطابة وهذا أحد أغراضها تميل الى الموعظة والارشاد بعد ان كانت تميل الى ايقاظ الهمم واشعال الحماسة في النفوس^(١).

أنواعها :

أولاً: الخطبة الحماسية

وإذا كانت جميع انواع الخطب هدفها اثارة الحماسة والهيب شعور الناس وتوجيههم الى القضية، فان لفظه الحماسة هنا تعني نفس مدلولها القديم المختص بالمواقف القتالية والمشاهد الحربية كما عناها أبو تمام الشاعر العباسي في كتابه المشهور (الحماسة).

وإذا كان الشعر قد تهيأ له من أبي تمام رجل يهتم به ويصنفه وفق موضوعاته ويطلق على الكتاب اسم "الحماسة" مشيراً الى اكبر الأبواب فيه، فان النثر لم يتهيأ له من يجمع خطبة الحماسية وأسجاعه ومواعظه فيضعها في كتاب مستقل خاص بها. وتتسم الخطب الحماسية بسمات صارت فيما بعد سمات لكل انواع الخطب عدا (خطبة الأملاك) فقد جرى العرف في الخطب أثناء الحرب وقبل بدء القتال ان يخطبوا واقفين أو على صعوات خيولهم أو من فوق نشز من الأرض. وكان القائد أو الفارس يخطب وسيفه أو رمحه في يمينه، وربما استعاضوا عنها بحمل الراية التي تمثل رمز وكرامة العربي في ذلك الوقت، ويتبع ذلك ان يكون الخطيب في كامل زيه الحربي أو بزته العسكرية، قد غطت رأسه القلنسوة أو البيضة أو ما يضعه المقاتل على رأسه اتقاء ضربات السيوف، وقد يستعاض عنها بان يلتاث المحارب بعمة سوداء كانت العرب تحتجز بها أيام التراث، وكانت الخطبة الحربية

(١) ينظر : سلام، علي محمد، (الدكتور)، الأدب العربي في الاندلس وأشهر اعلامه، الدار العربية،

(بيروت ١٩٨٩م) صص ٤٤٥-٤٤٧ .

البليلة تؤدي مهمة الجحفل الزاحف في ترجيح كفة النصر كما رأينا في مطلع حديثنا عن حرق المراكب والقاء الخطب بعدها أو سفح المياه أو أية بادرة عسكرية يلجأ إليها القائد الخطيب، وقد كان الزعماء والقادة يتبارون بالخطب وسحر اللغة وروعة البيان وشدة اسر البلاغة وقوة المعاني قبل ان يتبارزوا بأسلحتهم، فمن حسنت خطبته وامتلك الأفتدة ببيانه وكان أحب من خصمه الى قلوب جنده كان النجاح عليه أسهل والنصر أقرب، لذلك افترض في الفارس الى جانب قوة الجنان وحصافة الرأي واستخدام السنان ان يكون خطيبا وسليم اللغة قوي البيان. وتقتضي الخطبة ان يكون صوت الخطيب جهوريا مؤثرا حاضر البديهة مالكا لزام نفسه، متجها نحو جنده أو قومه بجامع قلبه وعقله وكل جارحة من جوارحه، فلا يشغل وهو يخطب في شئ سواهم وسوى خطبته فلا يلتفت ولا يشغل يده بأمر خارج حدود خطبته، لان مثل هذا التصرف يفسد جو المناسبة ويبرد الحماسة، ولذلك مما يعاب على الخطيب ان يلعب بأصابعه أو يهرش بها رأسه أو يحك رأسه أو لحيته أو يكثر من رفع يديه أو كفه الى فمه أو انفه أو أنفه، كما يعاب على الخطيب ان التلعثم والارتعاش والتحنج وتوسيع الأشداق وتهديل الشفاه^(١).

وتفاوتت الخطب الحربية في طولها وقصرها من خطبة إلى أخرى بحسب المناسبة أو الموقف الذي يقرر الخطيب بمقتضاه كيف تكون خطبته إذ ليس طول الخطبة ولا قصرها هو الذي يحكم بجودتها وبنجاحها. يقول الجاحظ (اعلم ان خطب العرب من أهل المدن والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ومُشاكلاً في استواء الصفة ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد)^(٢) ثم يتابع الجاحظ فيقول (ووجدنا عدد القصائد أكثر، ورواة العلم إلى

(١) ينظر: د. مصطفى جواد وأساتذة آخرون، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، ص ٣٦٤.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٧٠. ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٤، ص ٥٤.

حفظها أسرع^(١)) ومن خطباء الحرب المذكورين قيس بن خارجة بن سنان الذي
 خطب في داحس والغبراء النهار بطوله إلى الليل.
 واستدل الباحثون المحدثون^(٢) من سياق الخطب التي ساقتها المصادر،
 وبالأخص الجاحظ، أن الخطب الحربية التي تتضمن حماسة وفخراً ومنافرة وثاراً
 يغلب عليها طابع السجع، ولعل ذلك يعود إلى تشبثها بالأسلوب الشعري الذي
 يصلح للحماسة يومئذ أكثر مما يصلح لسواه، فقد قال هاني بن قبيصة الشيباني
 يحرض قومه يوم ذي قار (يا معشر بكر، هالك معنور خير من ناج فرور. ان
 الحذر لا ينجي من القدر. وان الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية.
 استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحر أكرم منه في الأعجاز
 والظهور. يا آل بكر قابلوا فما للمنايا من بد)^(٣).

ثانياً: الخطبة الوعظية

وإما الخطبة الوعظية فيغلب عليها الطابع الديني حتى عندما يعظ الوالد
 ولده، أو الرجل أهله، أو الشيخ قبيلته. وإن إضفاء صبغة الدين على الخطبة
 الوعظية الجاهلية يأتي من باب التجاوز، إذ لم يكن الوعظ في الجاهلية دعوة
 صريحه إلى التمسك بالوثنية، وإنما كان دعوته إلى التمسك بالعدل وأخلاق العرب في
 المروءة ونصرة الضعفاء من الناس وإغاثة الملهوف ثم صفات الكرم والتضحية
 وإيثار الخير، وبعد ذلك هي دعوة استصغار أمر الدنيا والاستهانة بها والزهد فيها.
 وكان ذلك متمثلاً في سجع الكهان، وإذا نحن تممتنا واطلعنا على خطبة قس بن
 ساعدة^(٤) الأيادي وهو يعظ الناس في سوق عكاظ وجدنا أن السجع في مثل هذه

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١١٧ .

(٢) د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ٤١٨ .

(٣) أبو علي القالي، الأمالي، ج ١، ص ٩٢ .

(٤) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من بني أباد المتوفي سنة ٢٢٣ ق.هـ / ٦٠٠م أحد كلماء
 العرب ومن كبار خطباءهم في الجاهلية قال عنه النبي صلى الله عليه واله وسلم (يحشر أمة وحده) ،
 وهو من المعمرين، الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٦٥، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ١،
 ص ٤٠ ابن سيد الناس، أبو الفتح بن محمد بن عبد الله، (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م) عيون الأثر في
 فنون المغازي والسير، مكتبة القدسي، (القاهرة ١٩٣٧م)، ج ١ ص ٦٨ .

الخطب يظل بارزا في تضاعيف النص ليؤدي نفس مهمته التأثيرية، ويقال إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حضر الخطبة لقُس بن ساعدة الأيادي وكان يومئذ فتى في مقتبل العمر. ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه قال أيضا: لست انساه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام مؤنق، فقال حين خطب فأطنب ورغب ورهب وحذر وانذر وقال في خطبته ^(١) (أيها الناس أسمعوا واعوا وإذا وعيتم فانتفعوا.....)

ثالثاً: الخطبة الموسمية

ونقصد بالخطبة الموسمية تلك التي تلقى في مواسم الحج او التجارة، ويكون موضعها في العادة أحد أسواق العرب السنوية التي تعقد في صور مهرجان أدبي وديني واقتصادي وسياسي عظيم. هذا الموطن الحقيقي للخطب الموسمية فان كانت قد القيت في موضع آخر غير الاسواق فهي تتناول نفس مناسبتها وأغراضها. وأهم أغراض الخطبة الموسمية هي الدعوة الى الصلح والسلم وسل السخائم من الصدور وعقد المعاهدات والأحلاف. ومن أغراضها كذلك فض الخصومات التي تنشأ عن أرض أو مياه أو سلع أو تجارة وكل ما يتعلق بالبيع والشراء، وكذلك ما يتعلق بالمنافرات والمفاخرات والحوار الذي يجري على ألسنة رجال العرب البارزين وأدبائهم المرموقين، وقد سبق ان استشهدنا بخطبة قُس ابن ساعدة التي ألقاها في سوق عكاظ. وقد كان في عكاظ منابر للخطب في الجاهلية يقوم عليها الخطيب ليجهر بخطبته معددا فعاله ومآثره وأيام قومه من عام الى عام إذا أخذت العرب تعدد أيامها وفخرها^(٢). ولم تكتف العرب بحل منازعاتها في عكاظ عن

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص ١٢٠، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)، البداية والنهاية في التاريخ، ط ١، دار المعارف (القاهرة، ١٩٧٠م) ج٢، ص ٢٣٥.

(٢) المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، طبع حيدر أباد، (أيران، ١٣٣٢هـ)، ج٢، ص ١٧٠.

طريق الخطب يل كانت تكتب ما يلقي في السوق كالصحيفة التي كتبها عمر بن الشريد السلمي منح بموجبها معمر بن الحارث العذري جُدَّ الشاعر الغزلي المعروف بجميل بثينة مكافأة حيث دعا بكاتب وصحيفة وكتب ذلك العهد المذكور في كتاب (الأزمنة والأمكنة) ^(١) للمرزوقي. أما المناقرات والمفاخرات فقد كانت تجري بين خلق من العرب وكان يقوم بين المتنافرين حَكْمٌ يقضي لأحد المتنافرين بالفضل على صاحبه فإذا انفر الحاكم أحدهما على صاحبه، وقضى عليه بالغلبة أخذ القوم بحكمه كالذي جرى في مفاخرة عبد المطلب ^(٢) بن هاشم وحرب بن أمية، وكان الحكم فيها نفيل بن عبد العزي، ومفاخرة عبد المطلب والتقيين والحكم فيها عزي سلمة الكاهن ^(٣)، ومنافرة عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع حرب بن أمية عند الملك النجاشي وكان الحكم بينهما هرم بن قطبة الفزاري، ولكنه لم يحسم المنافرة لصالح الطرفين فجاء نفيل بن عبد العزي بن رياح جد عمر بن الخطاب رض الله عنه وأرضاه فقال لحرب بن أمية: يا ابا عمرو أتتافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأقل منك ملامة وأكثر منك ولدا وأجزل صفداً ^(٤) وأطول منك مزودا واني لا أقول هذا وانك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة ^(٥)، جليل العشيرة ولكنك نافرت منقرا ^(٦)

فغضب حرب وقال (ان من انتكاس الزمان ان جعلت حكما). وقد ترد

(١) م . ن ، ج ٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٦

(٣) الميداني ، محمد أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ، (القاهرة ، ١٩٥٥ م) ج ١ ، ص ٣٠

(٤) الصفد بمعنى العطاء وقيل بمعنى القيود إذا شده وأوثقه ، ينظر : أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، باب صفد ، ص ٣٦٤

(٥) المريرة بمعنى الشكيمة والعزيمة ، ينظر : م . ن ، ص ٣٦٤

(٦) ينظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ، ص ٦

المفاخرة في ظروف المنافرة نفسها لكنها دونها في الأهمية لانها لا تعتمد على الحكم بل تكون عنوا مثل مفاخرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان لدى أحد ملوك اليمن^(١). وقد كانت المنافرة تنتهي بحصول أحد الطرفين على السبق الذي يقال له المنافرة. وكان الحاكم يأخذ النفارة من المتنافرين على حد السواء وهي نوع من أساليب الحكم المعتمدة قبل الاسلام. ويبدو أيضا من تفسير المعجمين العرب الأوائل لكلمة المنافرة بمعنى المفاخرة انها أمتت ضربا من انواع القمار في أخريات الجاهلية، لذلك أدرجها الإسلام في قائمة الممنوعات فقد رفضها الإسلام ومنعها .

وأما نماذج الحوار القصير السريع الذي يجري بين الرؤساء أو رجال الفكر والسياسة يومئذ من مظاهر النشاط الذهني فهو يختلف جدا عن المنافرة وينم عن حس لغوي مرهف، وذوق أدبي رفيع، في آن واحد. وقد نقل الرواة والأدباء في كتبهم فيضا منه يصلح لان يجمع ويحقق ويدرس دراسة مستحدثة، كالحوار^(٢) الذي دار بين النعمان بن المنذر وبين ضمرة بن ضمرة وهو أحد خطباء العرب، وكذلك الحوار الذي دار بين عمر بن الأهمم المنقري وكان أخطب أهل زمانه وبين الزبيرقان بن بدر وكان معروفا بتقديس العرب له حتى ان قومه ضربوا له يوما قبة من العمام. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم سأل عمرو بن الأهمم المنقري عن الزبيرقان بن بدر فقال عمرو (مات لحوزته مطاع في أدنيه فقال الزبيرقان أما انه قد علم اكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي فقال عمرو أما لئن قال فوالله ما علمته الا ضيق الصدر زمر المروءة^(٣) لئيم الخال حديث الغنى. فلما رأى عمر انه قد خالف قوله الاخر قوله الأول ورأى الانكار في عيني رسول الله قال يا رسول الله رضيت

(١) ينظر: أبو علي القالي ، الأمالي ، ج١، ص٧٢

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبين ، ج٢ ، ص١٧١

(٣) زمر ، بمعنى قليل والزمر بمعنى الجماعات ، ينظر: أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح

، ص٢٧٤. ابن منظور، لسان العرب، م٤ ص٣٢٩ .

فقلت أحسن ما عملت وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا^(١).

ومما يلاحظ على الخطب الموسمية ان الخطيب فيها استعاض عن السيف بالعصا أو المخرصة ليس على سبيل شيء سوى تقليد ذلك النوع من الخطب الحربية أو الحماسية والایماء الى أصلها، وذلك ان الخطيب لما وجد ان ابقاء الكف الخالية قد يسبب له أحرابا او اشغالا ليديه في أمور مستهجنة اجتماعيا ولا يقبلها جمهور الحاضرين كمسح الخطيب لشاربيه أو حك ذقنيه أو جوارحه فرأوا أشغال اليد بشيء أفضل من تركها خالية وارتأوا ان في العصا او المخرصة تلميحاً الى الاصل وهو السيف أو الرمح، فكان الخطيب يستعين بها في الاشارة وينقلها من كف إلى كف وَهُوَ يخطب، وَهُوَ إلى جانب ذلك كان يكثر من حملها معه عند دخوله السوق أو السير في الطرقات علامة له فكان يعرف بها. واضاف الجاحظ في رده على بعض من عاب على العرب حمل العصا في خطبهم سببا آخر الى ما ذكرناه فقال^(٢): ان حمل العصا والمخرصة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للطناب والاطالة وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصود عليهم ومنسوب اليهم حتى ليذهبون في حوائجهم والمخاصر في أيديهم الفالها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها وللإشارة بها.

ولم يستحسنوا قيامهم بالخطبة حاسرين فتعارفوا على لبس العمائم على الرؤوس في اثناء خطبهم، وتعارفوا أيضا ان يخطبوا من فوق نشز من الأرض أو على ظهور رواحلهم، وهي تقاليد من الخطب الحربية حيث الخطيب المقاتل على صهوة جواد وغطاء الحرب فوق رأسه، ولم يلتزموا في الخطب الموسمية بأسلوب السجع المتبع في وعظ الكهان بل استساغوا الأسلوب المرسل، إلا في حالة

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ ١ ، ص ٥٣

(٢) ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ ٢ ، ص ١١٧

المنافرات، فقد استخدموا السجع بجمل طويلة وعباراته الواضحة المفهومة وكذلك في بعض الخطب، اذ سرعان ما يعود الخطيب إلى الاسترسال فهو واقع عفو الخاطر لسجع الكهان، ذي الجمل القصار والفقرات الغامضة المقتضية والذي يقصده الكاهن قصداً.

رابعاً: الخطبة الرسمية

ولم يتأيد لنا في الخطابة الرسمية، ان الخطيب كان يتبع بها نفس أسلوب الخطبة الموسمية لان هذا النوع من الخطب يلقي على مسامع الجمهور من ارباب امورهم من الملوك والرؤساء في الاغراض السياسية، او تلقيه من قبل الوفود او رسل الملوك والرؤساء الى اندادهم كالوفد الذي أرسل به العرب الى الملك اليماني سلامة ذي فايش^(١) ووفدي العرب على كسرى^(٢) ووفادة عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة^(٣) ووفادة ضمرة بن ضمرة على الملك النعمان بن المنذر^(٤)

وهذا مثال من خطبة رسمية ألقاها أحد أشرف العرب بين يدي الملك سلامة ذي فايش و كان قد نشأ له ابن كأكمل ابناء المقاول وكان مسروراً به، فركب ذات يوم فرسا صعبا فكبا به فرسه فوقصه فجزع عليه أبوه جزعا شديداً، وامتنع عن الطعام واحتجب عن الناس، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه، فقام خطباؤهم يواسونه وكان في القوم الملبب بن عوف بن سلمة بن عمرو الجعفي فقال (أيها الملك ان الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ وتجمع لتشتت وتحلي لتمر،

(١) ينظر: ا ابو علي القالي، الامالي، ج ٢، ص ٩٩

(٢) ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج ١، ص ١٠١. أبو الفرج الاصفهاني، الاغانى،

ج ١٧، ص ١٠٥

(٣) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٠٧

(٤) ينظر: الميداني، مجمع الامثال، ج ١، ص ١٨٦

وتزرع الاحزان في القلوب بما تفاجأ به من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطئتك جلال ما لم تدن الأجل وتقطع الأمل، وان حدثاً ألمَّ بك فاستبد باقالك وصفح عن اكثرك لمن أجلّ النعم عليك وقد تهاوت إليك انبا رقن رزء فصبر وأصيب فاغتر اذ كان شوى^(١) فيما يرتقب و يحذر فاستشعر اليأس عما فات إذا كان إرتجاعه ممتعا ومرامه صعبا فلشيء ما ضربت الأسي وفزع أولو الأبواب إلى حسن العزاء)

خامساً : خطبة الأملاك

واما خطبة الأملاك فهي تطول وتقتصر بحسب مقتضى الأمر، تلقى في مناسبة سعيدة لدى جميع البشر وهي ساعة يختار الانسان شريك العمر، ورفيق الرحلة في هذه الحياة، وقد أعتاد العرب قبل الإسلام إذا اراد أحدهم ان يتقدم لخطبة فتاة ان يفصح عن ذلك امام أهلها او أوليائها بكلمة يضعها بين يدي حاجته يبرز فيها قدرته على النطق وسلامة العقل، وحسن التوجه في إيصال الامر، وايضاح الحال أمام المعنيين كي يبرهن بها على فطنته وذكائه ويكشف بها عن شجاعته وشرف أصله ونبل محتده ومدى إيمانه بما يقدم عليه وحبه لمن يريد ان يصهر إليهم وإعجابه باخلاق من يختار، وهذه المعاني التي ذكرناها هي المطلوبة من الخطيب ساعة الخطبة، لذلك نحن نرجح ان كلمة (الخطبة) بكسر الخاء و(الخاطب) و(المخطوبة) تعود الى الجذر القديم للخطبة التي تعني القاء كلمة مناسبة لمقتضى الحال، ثم صارت اصطلاحاً لهذا العرف الاجتماعي النبيل والذي يدل على أصالة في بناء المجتمعات الانسانية المتقدمة، لان الاهتمام في مثل هذه الاعراف والعبادات ولاسيما ما يتعلق بين الرجل والمرأة دليل على رقي النفس البشرية واحترامها للعلاقة المقدسة بين الجنسين .

(١) شوى، بمعنى هين أو يسير والشوى أيضاً رذال المال. ينظر: أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٣٥٢ .

ولم يشترطوا في الخطيب ان يخطب بنفسه، بل صوغوا له ان ينيب عنه من يخطب بدلا منه عندما يكون هذا البديل شخصا من أهل الخاطب، أو من أقربائه الاذنين فان لم يتيسر ذلك فقد أكلوا الأمر إلى كاهنة أو شيخ قبيلته أو رئيسه، وهذا كله من قبيل التسامح في هذا المظهر الاجتماعي الرائع لكي يذللوا كل عقبة في وجه اجتماع الناس على الشرف والكرامة الانسانية دون التقيد بالشكليات وفعلا زالت الخطبة الشكلية وبقيت الكلمة تدل على ذلك الأصل الزائل.

وتعارف العرب على ان خطبة الزواج يليقها الخطيب وهو جالس خلافاً لجميع الخطب التي تحدثنا عنها حيث يليقها صاحبها واقفاً، وتعارفوا أيضا على ان يطيل الخاطب ويقصر المجيب وألا يكثر الخاطب في مدح نفسه والثناء عليها، بل يترك ذلك إلى أهل الفتاة لكنه يفخر بخلاله وأجاد قومه فخرا موجزا، كما يقتصد في كل حديث لا علاقة له بالموضوع، لكنهم صوغوا له ان يسهب قليلا في التعبير عن مشاعره واعجابه بالقوم الذين يريد ان يصهر اليهم، وان يمدح اهل الفتاة ويطري على سمعة المخطوبة ثم يرد عليه خطيب اهل الفتاة مقتضبا ينوه بالرضا فيتم الامر، او الانتظار فيؤجله، او الاعتذار فيرفضه ويحسمه، وترد في بعض المصادر أمثلة كثيرة لانواع هذه الخطب، بعضها يختص بسواد الناس وعامتهم، ويختص البعض الآخر برؤسائهم وأصحاب امرهم، واختص قسم منها بزواج الملوك، وقد يتقدم للملكة او ابنة الملك أكثر من خطيب فتقام عندئذ حلبة سباق ومبارزة لا يستخدم فيها السيف بل تتوب الخطبة، وهذا يذكرنا بخطبة الفرسان ساعة اللقاء فيكون النصر لأجودهم كلاما فيفوز بقلب الفتاة. على ان كلامه يجب ان يكون مدعما بنبل المحتد وكرم اليد وشجاعة القلب. هذا وإن أشرف مثل نستشهد به هي خطبة ابي طالب بن عبد المطلب⁽¹⁾ في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم

(1) ينظر: ابو طالب : هو عبد مناف بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم كفل النبي ودافع عنه وصد قريش من الاعتداء على ابن أخيه ولد وتوفي في شعب أبي طالب أيام الحصار سنة ٣ق هـ وقيل اسمه عمران وذا الكفل. (ينظر: ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٥. ياقوت الحموي، المعقنضب من كتاب جمهرة النسب ، ج ١ ، ص ٢٧. الزركلي، الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

عندما خطب خديجة بنت خويلد^(١) فهي انضج ما لدينا من خطب الزواج في أخريات عصر ما قبل الإسلام اذ قال^(٢) (الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابراهيم وذرية اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوبا وجعلنا الحكام على الناس، ثم ان محمداً بن عبد الله ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا. وان كان في المال قل، فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها مثل ذلك وما أحببتهم من الصداق فعلي)^(٣) وابقى لنا التاريخ على صيغة كانت قريش ترددها في أثناء خطبة النساء في عصر ما قبل الإسلام فتقول (باسمك اللهم ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف باسمك اللهم ما سألت ولنا ما أعطيت)^(٤). ويبدو ان هذا النص كان مقدمة تقليدية للخطبة ثم يأتي المضمون أما عبارة (الحمد لله) التي وردت في خطبة أبي طالب أو (بسم الله) فهما صيغتان إسلاميتان ولا ندري ان كان الرواة المسلمون

(١) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد القري ولدت في مكة و مات ابوها يوم الفجار و تزوجت بأبي هالة بن زراه التميمي فمات عنها و كانت ذا مال كثير و تجارة تبعث بها إلى الشام. تزوجها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكانت أول من اسلم بعد عودته من غار حراء ونزول الوحي إليه بالنبوة وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات ودفنت بالحجون والحجون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهل مكة. (ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨، ص ٧-١١. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (ت٤٦٣هـ / ١٠٧١م). تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٨٠م). ج١، ص ٤٤٦.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج١، ص ٢١٣. الحلبي، أبو الفرج نور الدين علي بن ابراهيم بن أحمد (ت١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م) السيرة الطيبة وهو الكتاب المسمى انسن العيون في سيرة الامين والمأمون، ضبطه وصححه عبد محمد الخليفي، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٠م) ج١ ص ١٣٣

(٣) (ينظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠هـ / ٨٤٤م) الطبقات الكبرى، ط٢، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٨م)، م١، ص ٧٥

(٤) الجاحظ، البيان و التبیین، ج١، ص ٤٠٨.

قد أبدلوها في خطبة أبي طالب أما ان الرسول صلى الله عليه وسلم اقترحها على عمه يومئذ. واما سبب قيام أبي طالب خطيبا في زواج الرسول عليه الصلاة وأفضل التسليم مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم هو من هو في العلم والمعرفة والبيان فسيبه انهم جرت العادة بينهم إذا أراد عظيم من عظمائهم أو شريف من أشرفهم ان يتزوج قام كبير من أهله أو سيد من عشيرته ليخطب باسمه الفتاة التي اختارها لنفسه شريكة حياته و قد بقي تقليد خطبة الزواج في الأمويين حتى زوال خلافتهم فيروي لنا صاحب العقد الفريد خطبة من أخت عمر بن عبد العزيز وجواب الخيفة على خطبته^(١).

أجزاء الخطبة :

تكون الخطبة على خمسة أجزاء أي انها تمر بخمسة مراحل، وقصرها آخرون على ثلاثة: المقدمة والعرض (وتتطوي فيه الأدلة والتفنيد) والخاتمة، ولكن لا يلزم الخطيب ان يلتزم بها فقد يستغني عن المقدمة وقد يكون في حاجة الى تدليل أو تنفيذ، ولكني أعرضها على انها مراحل الخطبة الكاملة ولا خير من ترك بعضها أحيانا وهي :

١- المقدمة :

(١) اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب أسحق بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م) كتاب البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، ط ١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٢ م) ص١٠٩، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)، تاريخ الخلفاء ، تحقيق : إبراهيم صالح ، دار صادر ، = صالح، دار صادر، (بيروت ، ١٩٩٧ م)، ص٨٨ ، ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي أحمد (ت ١٠٨٩ هـ / ٦٧٩ م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار اكتب العلمية (بيروت ، د.ت) ج١ ص ١١٩-١٢١

أهميتها :

المقدمة من الخطبة كالمطلع من القصيدة، وكالافتتاح في الموسيقى، كل يمهّد لما بعده، و يعد السامعين إلى الإصغاء. والمقدمة أول ما يطرق الأسماع من الخطبة، فإن كانت جيدة أصغى السامعون، وتأهبوا لما بعدها، وتفتحت نفوسهم للخطيب، وإلا كانت نذيراً بفشله وتفاهة أثره . وكثيراً ما تتخذ المقدمة وسيلة لأن يسود الصمت بعد هرج حدث أثر الخطبة سابقة، أو من جراء مناقشة في موضوع الخطبة قبل سماع الرأي فيها أو اضطراب لسبب من الأسباب^(١).

ضرورتها والاستغناء عنها :

وقد تكون المقدمة ضرورية ولا يستغني عنها الخطيب، كأن يكون مجهولاً لا صلة للسامعين به، فيعتمد على المقدمة لعقد هذه الصلة، أو يكون الموضوع الذي يخطب فيه مجهولاً للسامعين أو لا يثير اهتمامهم، لأنه لا يمس مصالحهم، فيعتمد على المقدمة لتوضيح أهمية الموضوع، وبيان قيمته حتى يتصل بقلوبهم فيعوا ما يقال عنه، أو يكون الخطيب مُبغضاً إلى السامعين، لأنه من غير حزبهم، أو لمقالة سوء ذاعت عنه، أو لانه كان قد حكم فظلم فيلجأ إلى المقدمة ليخفف من هذه الكراهية ولو مؤقتاً و يتطلب منهم تناسي الحزازة والحكم البريء، أو تكون الفكرة التي يدعو إليها الخطيب بفيضة إليهم، كأن يدعو إلى تقييد التعليم في جمع معين من المتعلمين أو إلى الاشتراكية في جمع من المالكين أو إلى التحلل من قيود الدين في مجتمع من المتدينين المدينين، أو إلى الخضوع لأحكام الدين في جمهور من الماجنين، فيقدم خطبته بكلمة ملطفة لهذه الخصومة مخففة لما في نفوسهم من عداة سابق لما يدعو إليه، إذ يدعو الجمع إلى الخضوع للحق و التجرد من التعصب للهوى ولو فترة من الزمن، وفي غير هذه الأحوال لا حاجة إلى مقدمة^(٢).

(١) ينظر: الحوفي، أحمد محمد، (الدكتور)، فن الخطابة ص ١٢١.

(٢) ينظر: م، ن، ص ص ١٢١-١٢٢.

شروط جودتها

(١) يجب ان تكون الخطبة متصلة بالموضوع نفسه، لتخدمه و تمهد له، و مثالنا على ذلك خطبة الخليفة الأول الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه يوم السقيفة، فقد قدم للموضوع وهو ان المهاجرين أولى بالخلافة من الانصار بهذه المقدمة فقد قال :

(ان الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله وحده وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون انها لهم عندهم شافعة ولهم نافعة وانما هي من حجر منحوت وخشب منجور ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى، فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الاولين من قومه^(١) بتصديقه).

(٢) ان تكون المقدمة واضحة مناسبة لعقول السامعين موزونة المعاني دقيقة التعبير، لان السامعين في أول الخطبة ابصر بالنقد و أقرب إلى العناد حتى اذا ما بهرهم الخطيب اسلموا له القيادة .

(٣) ان تكون المقدمة شائعة تجذب السامعين الى الموضوع جديدة غير مبتذلة أو مشاعة، صالحة لكل خطبة. جاء في تعريف ابن المقطع للبلاغة (وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما ان خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته) وعلق الجاحظ بقوله كأنه يقول (فرق بين صدر خطبة النكاح و بين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لا خير في كلام لا يدل على معنائه ولا يشير الى مغزائه والى العمود الذي قصدت، والغرض

(١) ينظر: صفوت ، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ، تصنيف و مراجعة : د. محمد جاسم وأسائذة آخرون ، طبع بيت الحكمة ، ط١٣ ، (بغداد ، ١٩٨٨)،

الذي اليه نزلت) (١).

٤) ان تناسب الخطبة طولا وقصرا لانها مقدمة لا خطبة وتمهيد لا موضوع، ولأنها ان طالت استفدت جهد الخطيب وانتباه السامعين فيحرم الموضوع نفسه نشاطه ونشاطهم.

أنواعها :

ليس للمقدمة طراز خاص تلزمه فان الخطيب حرفي أن يستلهم مقدمته كما يشاء وتشاء ظروف المجتمع والموضوع.

ومن أنواع المقدمة :

أولاً - حمد لله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله، وكان هذا عرفاً شائعاً لازماً في العصر الإسلامي، وقد دأب المسلمون عليه حتى صار قاعدة يندر خلافها وقد قال الجاحظ (ان خطباء السلف الطيب وأهل اليان من التابعين بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي الشوهاء) .

ولم يكن توشيح الخطبة بالقرآن شرطاً في الخطبة الدينية يوم الجمعة أو العيد فحسب بل كان كما قال الجاحظ مستحسناً في الخطب كلها لأنه يورث الكلام بها ووقاراً ورقة وسلس موقع. حدث عمران بن حطان الخطيب الخارجي (٢) فقال: خطبت عند زياد خطبة غلظت اني لم أقصر فيها عن غاية ولم أدع لطاعن علة ثم

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص ١١٦

(٢) عمران بن حطان: هو عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني المتوفي سنة ٨٤ هـ وهو خطيب وشاعر وفقهه. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٢٦٥. الزركلي، الاعلام، ج ٥، ص ٢٣٣.

مررت ببعض المجالس فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن. (١)

ثانياً - الاستدلال بحكمة أو مثل أو بيت رائع من الشعر يوحى بالموضوع ويمهد له كما أستهل الحجاج بن يوسف التقي خطبته الشهيرة (٢) بالكوفة متمثلاً بهذا البيت:

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثالثاً - وقد يبدأ الخطيب بتنفيذ حجج خصمه، أو بذكر موضوعه على الاجمال .
رابعاً - وكثيرا ما يستوحي الخطيب اللبق مقدمته من حال الحفل وظروف الجمع، فتحدث أثرا في النفوس عميقا.

٣ العرض :

أهميته :

ان استغنى الخطيب أحيانا عن المقدمة أو عن الخاتمة فليس يستطيع ان يستغني عن عرض الموضوع لانه الخطبة نفسها أيا كان نوعها.

شروط جودته :

أ) الوحدة، وذلك ان تتبع مسائله كلها من ينبوع واحد، كانصاف أقطار الدائرة تنتشعب كلها من مركز الدائرة وقد سبق بيان ان من أسباب ضعف الخطابة الدينية ان الخطبة الواحدة ذات موضوعات شتى .

ب) الترتيب ، فيعرض الخطيب موضوعه متسلسلا ، يسلم كل جزء إلى ما بعده وبذلك تمهد الأجزاء كلها إلى النتيجة التي يريدها .

جـ) الوضوح، وهو أساس الخطبة الناجحة

(١) الجاحظ ، البيان و التبیین ، جـ ١ ، ص ٢٢٨

(٢) ينظر: الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ،

جـ ١ ، ص ١٧٠

٣) التذليل :

كثيرا ما يحتاج الخطيب الى التذليل على صحة رأيه وهناك نوعان من الادلة :

١) أدلة منطقية:

وهي المبنية على مقدمات ثابتة يقينية كالقياس مثلا فإذا أراد استتباط قياس فليعرض الموضوع والمحمول (وهما الحدان أو الطرفان) على الحد الأوسط فإذا ثبتت المقابلة صح القياس والا فلا، كان يقول كل جماعة لا بد لهم من عقيدة فالعراقيون جماعة فلا بد لهم من عقيدة وهذا الدليل المنطقي ينشأ عنه اقتناع ويقين عقلي، كما يقنع انسان آخر بان مجموع زوايا المثلث قائمتان .

٢) أدلة خطابية :

وهي المبنية على مقدمات ظنية أو المستتدة الى العرف الشائع او الى حكم مشهورة أو الى أقوال الفلاسفة والمشرعين، وينشأ من هذه الادلة الخطابية اقتناع شعوري، والفرق بين النوعين ان الدليل المنطقي لا يتصرف في القياس، أما الدليل الخطابي فانه يتصرف فيه التقديم والتأخير كقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه:

(اني امامكم واسوتكم فسيروا بسيرتي واقتنوا معالمي، فان لكل مأموم إماما يقتدى به ويستقي بنور علمه ألا ان امامكم قد اكنفى أمن دنياه بظمريه^(١) ومن طعامه بقرصيه)^(٢)

وكان التذليل المنطقي يقتضي ان يقول لكل مأموم أمام يقتدي به فانا امامكم فاقندوا بي وسيروا بسيرتي، ولكن لا يمكن ان نلغي التذليل المنطقي من الخطابة، والا كانت لونا من الدجل لهذا قلت ان التذليل المنطقي لا جدوى منه في أكثر الخطب، وذلك ان الخطب القضائية في أمور مدنية وخطب المناظرات والجدل

(١) ينظر: (الدكتور)، احمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١٢٩.

(٢) ظمريه بمعنى ثوبيه الباليين والظمر بالكسر الثوب الخلق. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٣٩٧. (الدكتور)، أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة ، ص ١٢٩.

والخطب العلمية والاجتماعية يلائمها التدليل العقلي والحجج المنطقية، أما خطب الحرب وبعض الخطب السياسية والدينية والقضائية والحقلية فيناسبها العزف على أوتار العاطفة، ومعنى هذا انه من الخطأ التزام طريقة واحدة في الخطب كلها. وقد عرف تاريخ الخطابة رجالا اعتمدوا على التدليل العقلي الصنف وانتصروا.

٤) التفنيذ :

هو مناقشة آراء الخصم وأدلته لإبطالها، سواء أكان التفنيذ للآراء العامة التي دعا الخصم إليها أم للنتائج التي استتبطها، وكثير ما يضطر إلى تفنيذ ما قاله خصمه ليمحو من النفوس أثره وقد يسبق خصمه، إلى تفنيذ آرائه التي يتوقعها ليسد عليه المسلك. وقد يتجاهل الخطيب حجج خصمه فلا ينقضها، لأنه غير مكرث بها، لان خطبته نفسها ستبطلها وتمحو أثرها .

وسائله :

١) المغالطة، وهي عند المناطقة صناعة يعرف بها القياس الفاسد، إما من جهة الصورة، وإما من جهة المادة، وإما من جهتهما معا^(١)، وأسباب الغلط على، كثرتها ترجع إلى أمر واحد وهو عدم التمييز بين الشيء وأشباهه، وتنقسم إلى ما يتعلق بالالفاظ بأن تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين المراد وغير المراد، وهنا يدخل الاشتراك والتشابه والمجاز، وإلى ما يتعلق بالمعاني وتأليف القياس كعدم مقدماته، أو تكون مغايرة لإحدى المقدمتين كقول علي عليه السلام على معاوية وكان قد نسب إليه أشياء (وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت فان يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر اليك وتلك شكاة ظاهر عنك عارها وقلت اني أقاد كما يقاد الجمل

(١) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١٢٧.

المخشوش^(١) حتى أبايع ولعمر الله لقد أردت ان تذم فمدحت وان تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة ان يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه وهذه حجتي الى غيرك قصدها ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنع من ذكرها، ثم ذكرت من أمري وأمر عثمان فلنك ان تجاب من هذه لترحمك منه فأينا كان أعدى له وأهدى الى مقاتله؟ أمنٌ بذل له نصرته فاستقده واستكفه؟ أم من استنصره فترأخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه؟ كلا والله لقد علم المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً (٠٠٠٠٠) (٢)

فهو هنا يعترف لمعاوية جدلاً بأنه حسد الخلفاء ولكن لا صلة لمعاوية بهذا حتى يعتذر إليه ويعترف له جدلاً بأنه يقاد ولكن لا عيب في القيادة ما دام صحيح الدين

وهذا نموذج آخر من خطبة أبي حمزة الشاري^(٣) لما بلغه ان أهل المدينة

(١) الجمل المخشوش الذي في عظم انفه حبل يقاد به. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح ، ص ١٢٨

(٢) الحوفي ، أحمد محمد ، (الدكتور) ، فن الخطابة ، ص ١٢٧

(٣) أبو حمزة الشاري : هو المختار بن عوف بن سليمان بن ملك الأزدي السلمي البصري من بني سليمة أين ملك ولد في البصرة من الخطباء القادة وكان في كل سنة يخلص بمكة يدعو الناس للخروج على مروان بن محمد و أخذ بمذهب الإباضية وأورد ابن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث سنة ١٢٨ ، ١٣٠ ان ابا الحمزة قتل في واقعة وادي القرى و لكن أورد المسعودي في مروج الذهب من انه قتل سنة ١٣٠. (ينظر: الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، ج ٧ ، ص ١٤٦ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤٦ ، ابن كثير ، البداية و النهاية ، ج ٨ ، ص ٣٥ ، ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف البشعاعي الظاهري (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) ، النجوم الزاهرة ، في أخبار مصر والقاهرة ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٢٠ م) ، ج ١ ص ٣١١ ، أبي فرح الاصفهاني ، الاغانى ، ج ٢٠ ، ص ١٠٥ ، ابن عبد ربه الإندلسي ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ص (١٦١-١٦٢)

يعيبون أصحابه بحدائثة أسنانهم وخفة أحلامهم (قلتم هم شباب أحداثا واعراب جفاة، ويحكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكورون في الخير الا شبابا أحداثا؟ شباب والله متكهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة من الباطل أرجلهم أطلاح سهر، باعوا انفسا تموت غدا بانفس لا تموت أبدا). فهو يعترف بدعوى خصومه ان حزبه من الشباب و يخالفهم في النتيجة إذ يصف هؤلاء الشباب بالحصافة والشجاعة والتقوى.

ب : الانتكار :

فلا يسلم للخصم بما ادعاه، معتمدا في انكاره على حجة ملزمة ومن ذلك خطبة معاوية^(١) بالمدينة عام الجماعة، إذ تلقاه رجال من قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعزّ نصرتك، وأغلى كعبتك، فما ردّ عليهم شيئا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (٢):

(أما بعد فاني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولائتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة) فهو يوافقهم على ان الله أعزّ نصره وأعلى كعبه ويخالفهم في طريقة توليه، هم يدعون ان لمحبتهم ضلعا فيها وهو ينكر عليهم ذلك وحثه انهم كانوا من انصار علي عليه السلام ورضي الله عنه وأرضاه وكرم الله وجهه .

(١) معاوية بن (أبي سفيان) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموي مؤسس الدولة الاموية في الشام أحد دهاة العرب واسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ و ولاه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الله عنه الاردن ودمشق واستلم الخلافة من الامام الحسن سنة ٤١ هـ وتوفي في دمشق سنة ٦٠ هـ. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩٢، الطبري، تاريخ الرسل و الملوك ، ج٦، ص ١٨٠. ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج ٤، ص ٢.

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٤٥٨. الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ١٠٣ .

الخاتمة :

وهي آخر ما يبقى في أذان السامعين وأذهانهم من الخطبة، وبعدها يجني الخطيب الثمرة المرتجاة من خطبته، فتصدر المحكمة حكمها بالبراءة أو الإدانة، ويخضع السامعون لخطبة الوعظ ويتقون، أو لا يتأثرون، ويشارك السامعون الخطيب شعوره نحو المحتفل به، أو لا يشاركون. وفي الخاتمة يتجلى نجاح الخطيب في لعبه بعواطف الجمهور واستمالته لهمم .

وللخطيب ان يلخص في خاتمته الأفكار والعناصر البارزة من خطبته، وله ان يستثير السامعين ويهدهم ويلهب مشاعرهم، وقد يجمع بين الطريقتين. ومن شروط جودة الخاتمة:

أ (فان لخص فايكتفي بذكر أهم ما جاء بخطابه وليعبر بأساليب مغايرة لتعبيراته الأولى لانه إن كرر المعاني بالأساليب نفسها أضجر السامعين، وان هاج المشاعر وجب ان يكون عليما بنفسية الجمع ووسائل استمالته ليسلك الطريق الملائم لأثارته، أيلجأ الى التحذير والترهيب أم الى الوعد والترغيب؟ أيتسلل إلى القلوب بأمال يبنها أم بمخاوف يهول بها؟

ب (ان تكون قوية العبارة لتهز المشاعر .

جـ) ان تكون قصيرة، لأن قصرها يكسبها روعة، وخير للخطيب ان ينتهي والجمع في حماسة وميل الى الاستزادة من ان ينتهي والناس في ملل وسامة .
والمثال على ذلك والمحقق للهدف من الخطبة ما قاله زياد ابن أبيه في ختام خطبته بالبصرة:- (وإذا رأيتموني انفذ فيكم الأمر فأنفذه على اذلاله. وأيم الله ان لي فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل منكم ان يكون من صرعاي).

المبحث الثالث

خصائص الخطيب (عدته وصفاته)

للخطيب خصائص أي صفات يتسم بها، ولا بد من توفرها فيه، وهذه الصفات أو أعني الشروط يجب ان تتوفر في الخطيب و يمكن أجمالها بما يأتي :

(١) الاستعداد الطبيعي (الفطري) :

وأول ما يعترضنا هذا السؤال . أيستطيع الانسان ان يصير خطيبا بكثرة المرانة والمزاولة؟ أم لا غنى له عن هبة طبيعية سابقة تميها المرانة وتركيبها المزاولة؟ فهي كالبذرة الحية تنبت وتزكو إذا بذرت في تربة خصيبة وجو صالح، وجوابنا على ذلك ان الخطيب كالشاعر والموسيقيار والرسام لا بد ان يكون في فطرته استعداد لهذا الفن البليغ ينبع من نفسه ويمده، ونحن نعلم ان الناس متباينين في ميولهم وفي استعدادهم فمنهم من لا تهزه المناظر الرائعة أو المروعة ومنهم من يصمت أمام هذه المناظر دهشا مذهولا، وفيهم من تجيش بالأحاسيس نفسه فيعبر عن جيشانه بكلمات مصورة لما يحس، والخطيب والشاعر والكاتب من هؤلاء الذين إذا ما ثارت عواطفهم فسحت لهم متنفسا فعبروا وصوروا .

وفي بعض تعاريف البلاغة عند العرب والفرنجة ما يؤيد انها طبع في البلغاء فأبو الحسن الرماني يقول أصل البلاغة الطبع، وصُحار بن عيَّاش العبدى يجيب معاوية وقد سأله ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ بقوله : شئ تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا

(٢) اللسن والفصاحة :

ولا بد للخطيب ان يكون لسانا فصيحاً نرب اللسان بليلا الريق قديرا على التعبير، لأن منطقه هو ثروته وعدته، وهُوَ بمنطقه يقنع وبمنطقه يستميل ، وما هَزَّ المنابر في القديم والحديث ولا تزعم الامم وقاد الجماهير إلا اللسن الفصحاء وقد علم العرب بتجاربههم ان سعة الشدقين عون على اللسن فامتدحوها قيل لاعرابي :

ما الجمال؟ قال "..... ورَحَبَ الشَّدَقَيْنِ" (١)

وتكلم الخطباء عند معاوية فأحسنوا ، فقال : والله لأرminهم بالخطيب الأشدق ،
قم يا يزيد فخطب وقال

"وضُلَّعَ الرؤوس عظام البطون

رحاب الشدق من طوال القَصْر (٢) "

وذموا ضيق الافواه قال الشاعر:

لحى الله الذبي من قبيلة

إذا ذكرت في النائبات أمورها

فشبهه أقواهم بأفواه الجراد .

ومن نقص الخطيب ومعايبه ان يكون بمنطقه عيب يعوق سهولة المخارج
وسلامة الحروف واستواءها كالجلجلة (٣) والفأفة والتمتمة واللغة والف والفحسة
والحكلة .

وتلك عيوب تبدو منذ الطفولة، راجعة الى وراثة أو مرض أو سوء محاكاة
أو تعجل في النطق أو خجل، ولكن من المستطاع علاجها وعليه فان عيوب
الخطيب تكون على الوجه الاتي وبالتفصيل .

(١) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١١ .

(٢) القصر : الاعناق . الدبي ، الجراد . أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ١٩٨ و ٥٣٧

(٣) اللجلجة تعني التردد في الكلام ، الفأفة تعني ترديد الفاء واكثرها في الكلام . والتمتمة تعني
رد الكلام الى الفاء والميم واللغة أو اللثغ تحول اللسان من المين الى التاء أو من الراء الى
العين أو الياء أو من حرف الى حرف واللف معناه العي و البطء في الكلام وأن يملأ لسان
المتكلم فمه فلا يبين والحبسة تعني تعذر الكلام عند ارادته والحكلة تعني العجمة في الكلام .
المبارك ، عبد الحسين ، (الدكتور) ، فقه اللغة ، مطبعة جامعة البصرة (١٩٨٦م ، ص ٤٦) .
أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٥٩٢ . الجنابي ، أحمد نصيف (الدكتور) ملامح من
تاريخ اللغة العربية، دار الرشيد، (بغداد، ١٩٨١م) ص ٢٧-٤٥

(أ) اللثغ:

أي إبدال حرف حرفاً والشائع منه إبدال الراء ياء أو غينا والغين أقل قبحا وهي كثيرة^(١) في كبار السن وبلغائهم وأشراقهم وعلمائهم، ولكنها بالجهد والمثابرة تزول، فقد كان محمد بن شبيب المتكلم إذا حمل نفسه وقوم لسانه ينطق الراء صحيحة وكثير من معاصيرنا زاولوا هذا ونجحوا. وقد كان واصل بن عطاء^(٢) اللثغ فاحش اللثغ وكانت خطبته خالية من الراء^(٣) وهو شيخ من شيوخ المعتزلة ذو رأي يدعو اليه ويذيعه ويلاحي عنه ويقارع الأبطال بالخطب الطوال، فلا بد له من بيان سليم وسهولة مخرج وجهارة منطوق وتكميل حروف واقامة وزن فعمد الى الراء فأسقطها من كلامه وأبعدها من منطقها ولم يزل يكابد ذلك ويغالبه حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل (ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذا الحال

(١) الجاحظ ، البيان و التبين ، ج١ ، ص ٢٨

(٢) واصل بن عطاء المعتزلي، الغزال مولى بني ضبة كان أحد الأئمة البلغاء و كان يلثغ بالراء فيجعلها عينا وهو تلميذ الامام الحسن البصري وله كتاب المنزلة بين المنزلتين سمي بالغزال لانه كان يلزم الغزالين ليعرف التعففات من النساء فيجعل صدقته لهن. ينظر: ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٨ ، ص ٧-١١. ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمد ، (ت ٦٨١ ، ١٢٨٣م)، وفيــــــــــــــــات الاعيــــــــــــــــان وانبيــــــــــــــــاء ابنــــــــــــــــاء الزمــــــــــــــــان، = تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة ، ١٩٤٨م) ج٦ ، ص ١١ ، الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ / ١١٥٥م) ، الملل والنحل ، صححه وعلق عليه : الشيخ أحمد فهمي محمد ، ط ١ ، (الجيزة ، ١٩٤٨ م) ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٥٠ . واصل بن عطاء المعتزلي، الغزال مولى بني ضبة كان أحد الأئمة البلغاء و كان يلثغ بالراء فيجعلها عينا وهو تلميذ الامام الحسن البصري وله كتاب المنزلة بين المنزلتين سمي بالغزال لانه كان يلزم الغزالين ليعرف التعففات من النساء فيجعل صدقته لهن .

(٣) الطبري ، تاريخ النسل و الملوك ، ج٦ ، ص ١٦٦ . الجنابي ، أحمد نصيف ، (الدكتور) ،

ملاح من تاريخ اللغة العربية، دار الرشيد للنشر ، (بغداد ، ١٩٨١م) ، ص ٢٧-٤٩

حتى صار لغرابته مثلاً ولظرافته معلماً لما استجزنا الاقرار به والتأكيد له ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخددة^(١) لان ذلك يحتمل الصنعة وانما مماجّة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الأخوان، ومن أمثلة مجافاته للراء قوله في بشار بن برد^(٢) وقد هجاه وصوب رأي ابليس في تقديم النار على الطين " أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا ان الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إلى من ينبع بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله . أو في حفلة " فلم ينطق بكلمة بشار أو ابن برد أو المرعث أو الكافر وأختار عوضاً منها كلمات لاراء فيها وقال الغالية ولم يذكر المنصورية أو المغيرية وقال بعثت بدلاً من أرسلت وقال على مضجعه بدلاً من على فراشه وكان إذا أراد ان يذكر البُر قال القمح (وهي شامية) والحنطة (وهي كوفية) وهو يعلم ان البر افصح .

وقد كان بشار من قبل ان يدين بالرجعة ويكفر الأمة- كثير المديح او اصل بن عطاء وقد فضله على خالد بن صفوان وشيب بن شيبية والفضل بن عيسى يوم خطبوا عند عبد الله^(٣) بن عمر بن عبد العزيز والي العراق لان خطبته التي نزع منها الراء كانت أطول من خطبهم فقال بشار :

تكفوا القول والأقدام قد حفلوا

(١) الجاحظ البيان والتبيين ، ج١، ص٢٨ .

(٢) بشار بن برد : هو بشار بن برد العقيلي بالولاء أبو معاذ من أشعر المولودين أصله مسن طخارستان أي فارسي الأصل زكان ضريراً نشأ في البصرة أتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط سنة ١٦٧هـ وقيل سنة ١٦٠هـ / ٧٨٤م ودفن بالبصرة . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٨٨ . الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٤٩

(٣) عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وهو من الخطباء الشعراء الذين جمعوا الخطب والشعر والرسائل الطوال وله كتاب الأخوان والمسائل وغيرها توفي سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م . ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١، ص ٣٠ و ٥٠ . الزركلي، الاعلام، ج٣، ص ٢١٠ .

وَحَبْرًا خَطْبًا نَاهِيكَ مِنْ خُطْبِ

فَقَامَ مَرْتَجِلًا تَغْلِي بِدَاهَتِهِ

كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حَفَّ بِاللَّهَبِ

و

جَانِبِ الرَّاءِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ

قَبْلَ التَّصْفِحِ وَالْإِعْرَاقِ فِي الطَّلَبِ^(١)

وَبَلَغَ بِالْعَرَبِ احْتَوَاؤَهُمْ لِلتَّغِ انْ طَلَّقَ أَبُو رَمَادَةَ امْرَأَتَهُ حِينَ وَجَدَهَا لَتْغَاءَ مَخَافَةَ
انْ تَجِينَهُ بَوْلِدِ التَّغِ فَقَالَ :

لَتْغَاءَ تَأْتِي بِحَيْفِ التَّغِ

تَمِيسُ فِي الْمَوْشَى وَالْمَصْبَغِ^(٢)

وَكَانُوا يَعْرِفُونَ انْ سَقَطَ التَّنَائِيَا يَجْلِبُ التَّغِ وَلِذَلِكَ قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ^(٣): لَوْ
عَرَفَ الزَّنْجَنِي فَرَطَ حَاجَتَهُ إِلَى تَّنَائِيَاهُ فِي إِقَامَةِ الْحُرُوفِ وَتَكْمِيلِ جَمِيلِ الْبَيَانِ لَمَّا
فَزَعَ تَّنَائِيَاهُ. وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو^(٤) الْخَطِيبِ
— وَكَانَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ مِنْ أَخْطَبِ النَّاسِ وَأَشْدَّهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ — يَا رَسُولَ اللَّهِ انْزِعْ تَنْبِيئِيهِ السَّفَلِيِّينَ حَتَّى يَدْلَعُ لِسَانَهُ فَلَا يَقُومُ عَلَيْكَ خَطِيبًا
أَبَدًا وَانَمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ سَهِيلًا كَانَ أَعْلَمَ مِنْ شَفْتِهِ السَّفَلِي. وَلَمَّا شَدَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٣٥، الدكتور أحمد نصيف الجنابي، ملامح من تاريخ اللغة العربية، ص٢٧-٣٩

(٢) المصْبَغُ يعني الغليظ الضخم لاخير عنده والذي يغضب ويرضى من غير شيء، أبو بكر الرازي، مختار الصحاح ص٣٥٥.

(٣) سهل بن هارون بن راهون أبو عمرو الدستيمساني كاتب بليغ حكيم رئيس خزائن الحكمة في زمن المأمون. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٣٤٦.

(٤) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ /)، المغازي، (القاهرة،

١٩٤٨م)، ص١٠١

مروان أسنانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت .
ب) الحصر والرتج : وذلك قد يعتري الحصر الخطيب فيبرد جسمه وتخور قوته ويتصبب عرقه ويدور رأسه وتطن أذنه ويشحب لونه وتسرع ضربات قلبه، وربما يعتريه الحصر حين يعتلي المنبر وربما يصيبه وهو يخطب لحادث يعرض من السامعين أو لوهم يتوهمه قال أبو هلال العسكري ^(١) " الحيرة والدهش يورثان الحُبسة والحصر وهما سبب الارتياح والاجبال. حدثوا ان عبد ربه اليشكري كان عاملا على المدائن ^(٢) فصعد المنبر ليخطب خطبة الجمعة، فحمد الله ثم أرتج عليه فسكت ثم قال: والله اني لأكون في بيتي فتجئ على لساني ألف كلمة فإذا قمت على أعوادكم هذه - يريد المنبر - جاء الشيطان فمحاها من صدري وقد كنت أحب يوم الجمعة فصرت أبغضه وما ذلك إلا لخطبتكم هذه. وقد يحصر الخطيب مرة فيهجر من بعدها المنابر ويخجل من لقاء الجماهير ولذلك تعود وأمنه قال النمر بن نؤلب ^(٣)

أعدني رباً من حصر وعي

ومن نفس أعالجها علاجاً

فعلى من يتصدى لمواقف الخطابة ان يكون رابط الجأش قوي القلب، جريئاً على مواجهة الجماهير، وتحمل ما قد يحدث لا يعيا ولا يحصر وليثق بنجاحه سلفاً

^(١) أبو هلال العسكري : هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال عالم بالأدب نسبتة الى عسكر مكرم من كور الاهور له مصنفات منها كتاب الصناعيتين ، التلخيص ، جمهرة الامثال توفي بعد سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥ م . الزركلي، الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢١١-٢١٢ . البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ١ ، ص ١١٢ . ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٧٧ .

^(٢) مدينة أول من بناها انوشروان بن قباد فهي ساكن ملوك الأكاسرة و التي تسمى حالياً سلمان باك . ينظر : ياقوت الحموي، معجم ابلدان ، ج ٥ ، ص ٨٨ ، اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٥

^(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٦ .

ويتسلح بتقته بنفسه وفي تقدير الجمهور له.

والخطيب الماهر من يجيد التخلص من الحصر ان وقع له بكلمة عاجلة أو جملة مؤثرة، فقد أرتج على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه في أول خطبة له فقال (أيها الناس إن أول مركب صعب. وإن أعش تَأْتكم الخطب على وجهها وسيجعل الله بعد العسر يسرا) ولما قدم يزيد بن أبي سفيان^(١) الشام واليا عليها لأبي بكر خطب الناس فأرتج عليه فعاد الى الحمد لله ثم أرتج عليه فعاد ثم أرتج عليه فقال " يا أهل الشام لعل الله ان يجعل بعد العسر يسرا وبعد عمي بياننا وانتم الى أمام فاعل أحوج منكم الى أمام قائل .

وخطب عبد الله بن عامر^(٢) بالبصرة في يوم أضحى فأرتج عليه فقال: والله لا أجمع عليكم عيا ولؤما من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها علي^(٣). وبعض

(١) يزيد بن صخر (أبو سفيان) بن حرب الأموي أبو خالد أمير صحابي من رجالات بني أمية شجاعة و حزما أسلم يوم فتح مكة و أستعمله النبي محمد صلى الله عليه و سلم على صدقات بني فراس و كانوا أخواله ثم أستعمله أبو بكر الصديق رضي الله عنه على جيش وسيره الى الشام ثم أستلمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه واليا على فلسطين و ثم ولي دمشق توفي في دمشق بالطاعون وهو على الولاية. (ينظر : الزركلي، الاعلام ، ج ٩ ، ص ٢٣٦ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ٣ ، ص ١٩٧)

(٢) عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة الأموي أبو عبد الرحمن المتوفي سنة ٦٧٩هـ/٦٧٩م، أمير ، فاتح ولد بمكة وولي البصرة في أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٩هـ وفتح سجستان وأبو شهر وطوس ونيسابور وشهد واقعة الجمل ولاء معاوية البصرة ومات بمكة ودفن بعرفات وقال عنه الإمام علي عليه السلام ابن عامر سيد فتيان قريش. (ينظر : ابن سعد، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٣٠-٣٥، الزركلي ، خير الدين، ج٤ ، ص ٢٣٨ ، الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، (ت ٧٤٨هـ /) ، ص ٢٦٦، تاريخ الاسلام ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دائرة المعارف والنشر ، (الكويت ، ١٩٦٠م) ج ٢ ص ٢٦٦.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٣ ، ص ٤٧. أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، ج ٣ ، ص ٣٦٩

الخطباء عجزوا عن التخلص اللطيف فأضحكوا. ومن ذلك ما روى الجاحظ انه قيل لرجل من الوجوه قم فاصعد المنبر وتكلم فلما صعد حصر وقال "الحمد لله الذي يرزق هؤلاء" وبقي ساكتاً فأنزلوه وصعد آخر فلما استوى قائماً، وقابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينه على صلعة رجل فقال : اللهم "العن هذه الصلعة " ودعي مصعب بن حيان ليخطب في نكاح فحصر فقال: (١) (لئنوا موتاكم شهادة ان لا اله إلا الله) فقالت أم الجارية : عجل الله موتك، لهذا دعوناك .

جـ (الاستعانة :

قال رجل للعتابي: ما البلاغة : فقال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ قال : قد عرفت الإعادة والحبسة فما الاستعانة ؟ قال ان يقول عند مقاطع كلامه: يا هناه، يا هذا ويا هيه واسمع مني وأستمع ألي، وأفهم عني، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل؟ فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد ومن الاستعانة ان يمسح عُنُونَه أو يقتل أصابعه، أو يكثر التفاتَه من غير موجب أو يتساعل من غير سعة أو ينبهر في كلامه قال الشاعر :

مليء ببهرٍ والتفاتٍ وسَعَلَةٍ

ومسحةٍ عُنُونٍ وقل الأصابع

أعوذ بالله من الإهمال

ومن كلال الضرب في المقال

ومن خطيب دائم السعال (٢).

(١) أحمد زكي صفوت ، جبهة خطب العرب مج ٣، ص ٣٧١-٣٧٥

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٧، البهر يعني تابع النفس والعنون يعني اللحية. ينظر:

أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٦٧

قيل لعبد الملك بن مروان^(١): عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين قال : وكيف لا يعجل عليّ الشيب وانا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين أو قال : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن^(٢).

حقاً ان الخطيب يعرض على الناس عقله ويعرض عليه ما عنده من تجربة، او فكرة او عقيدة الحياة، كله مجاله، وميدانه فهو في السياسة محتاج الى التاريخ والدين والاقتصاد والاجتماع والقانون، وفي الدين مفقّر الى التعمق في مسائله والى التاريخ ودراسة أحوال المجتمع ونظمه وعاداته، وفي القضاء يستمد من الشرائع والقوانين وعلم النفس الفردي والجمعي والإجرائي، وهو في الخطب كلها يغترف من اللغة والأدب، وكلما استبحرت ثقافته واستفاضت قراءته غرزت معانيه وسمت أفكاره وقويت أدلته .

و إذا كان خطباء العرب^(٣) قبل الاسلام قد جروا على الفطرة فاتهم كانوا متفوقين على معاصريهم، ولم تكن دواعي الخطابة وانواعها وظروفها قد تشعبت وتعددت وتعقدت، وكان الجمهور كله ساذج المعارف، وأما الآن فالخطيب أيا كان موضوعه لا يقنع ولا يستميل إلا إذا كان دارساً لموضوعه، ومتقناً ثقافة عامة تضي على قوله جدة، وعليه فليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره فانها لا تخيم عن النظر في كل العلوم والفنون، ولا شيء الا ويتطال اليه جيد كلامها، ويخضع اسلطان لسانها، ومن ثم يجب على الخطيب ان يكون ملماً

(١) ينظر: عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو الوليد من أعظم الخلفاء نشأ في المدينة انتقلت اليه الخلافة سنة ٦٥هـ وهو أول من ضرب الدنانير في الإسلام وعرب الدواوين توفي في دمشق سنة (٨٦ هـ / ٧٠٥ م). (ينظر : الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٩٨ ،)

(٢) أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، ج ٣ ، ص ٢٧٦

(٣) الدكتور أحمد الحوفي ، فن الخطابة ، ص ١٨

بمعارف شتى، ولا يستغني الخطيب عن الاطلاع الدائم والا تخلف وأكدي وقرر تأثيره فالروح نار إذا انت لم تطعمها لتزيد وتقوى تناقصت وخبث، والانسان بالتعلم ومجالسة العلماء وبطول التقلب لكتب وجود لفظه ويحسن أدبه وهو كما يقول الجاحظ (لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك التعلم وفي البيان الى أكثر من ترك التخيير) ويقول في موضع آخر^(١) (وانا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبين وان ظننت ان لك فيها طبيعة وانهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك فيستولي الالهال على قوة القريحة ويستبد بها سوء العادة)، ويحذر من مخالطة غير المثقفين ومن ترك الاطلاع بقوله (ولو جالست الجهال والسخفاء والحمقى شهرا فقط لم تفق من أوطار كلامهم وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا، لان الفساد أسرع الى الناس وأشد التحاما بالطبائع. على ان الخطب تختلف انواعها وموضوعاتها في مقدار حاجتها الى ثقافة الخطيب، وفي نوع هذه الثقافة أكثر مما تتطلب الخطب الحربية والحقلية، والالوان الثقافية التي تقتضيها الخطبة القضائية، كذلك يختلف القدر المطلوب من الثقافة بحسب السامعين، فلكل جمهور نوع من الثقافة يناسبه، والخطيب في كل الحالات محتاج الى ان يكون مزودا بقسط من الثقافة يستطيع ان ينيير الطريق أمام سامعيه ويشعرهم بانهم أضاف الى معارفهم جديدا، ولقد يعتمد على ثقافته في اضافة الجدة والطرافة على الموضوعات المعتادة في خطب التكريم والتأبين فيستوعب الانتباه وينال الاعجاب، وفي عصور الثقافة لابد للخطيب ان يضيف عنصر المعرفة الى العناصر الأخرى التي تقوم عليها شخصيته، وعليه فعلى الخطيب ان يلم بنظم الحكم وأصول الأخلاق وانواع الأدلة وموارد الدولة ومصارفها وطرق تنمية الثروة .

(١) الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج ١ ، ص ٥٦

٤) معرفة نفسية السامعين :

ان هدف الخطيب ان يتغلل في نفوس سامعيه، فيصرفها كما يشاء، معتمدا على اثاره عواطفهم واشعال مشاعرهم، وسبيله الى ذلك ان يلم بعلم النفس الاجتماعي ليعرف روح المجتمع وعقليته، ويقف على طبائع النفوس وعواطفهم، ويعلم ما يثير هذا المجتمع أو يهدئه، وما يرضيه أو يغضبه وأي الأساليب ملائم له؟ أهو أسلوب البسط والإطناب؟ أم أسلوب الإيجاز والإشارة والاقتضاب؟ والخطيب الناجح من امتزجت بروح السامعين روحه فكان هو وهم كساكين كهربيين سالب وموجب يلتقيان فيشع منهما ضوء وحرارة والسامعون من طبقات. شتى وبيئات عدة فيهم الكبير والصغير والمتعلم والأمي والفقير والغني، والخصم والوالي، فعليه ان يمهّد الطريق إلى إقناع هذا الجمهور المتباين والى التأثير فيه، فالعواطف تختلف حسب الموضوعات من سكينه وهياج، وطمأنينة وخوف، وكره وحب، ورضا وسخط وتختلف فيما يثيرها فعواطف الفقير يثيرها ما لا يثيرها عواطف الغني، وعواطف الشاب يهيجها غير ما يهيج عواطف الشيخ ثم هي تختلف تبعا لمزاج السامعين و ميولهم فبعضهم مثلا حساس فيما يتصل بالوطنية وبعضهم فيما يتصل بالدين أو الفضيلة وهكذا . فمثلا للخطابة أدلة و وجدانية تثير الرغبة والإحساس وهذه صالحة للتأثير في العامة في الوعظ والإرشاد وإشعال ثورة أو إخمادها وكنموذج لذلك خطبة الإمام علي بن أبي طالب وقد أثار الضحاک بن قيس^(١) على الحيرة من قبل معاوية وغنم من أموال أهلها فاستصرخ عليّ الناس

(١) ينظر: هو الضحاک بن قيس خالد النهري القرشي ، أبو أمية سيد بني قهر واحد الولاية الشجعان سكن دمشق و شهد صفين مع معاوية ولاه على الكوفة سنة ٥٣هـ ثم ولاه دمشق قتل في مرج راهط في المحرم سنة ٦٥هـ / ٧٤٦ م وقيل في ذي الحجة سنة ٦٤هـ . (ينظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٧ ، ص ٢٨٧ ، ابن عساکر ، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦ م) ، تهذيب ابن عساکر ، تحقيق : عبد القادر بدران ، مطبعة روضة الشام ، (دمشق ، ١٣٠٣هـ) ، ج ٧ ، ص ٤) ، الزركلي ، الاعلام ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

فتقاعدوا، فقام فيهم خطيباً فوبخهم وقرعهم بأدلة خطابية ثم أستحثهم على الجهاد لحماية أعراضهم ودينهم، ثم أقسم لهم أنه لن يصدقهم ولن يرجو نصرتهم ثم عجب أن يكونوا رجالاً كرجال معاوية ولكنهم لا يعملون عمل الرجال قال (أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهي الصمّ الصلاب وفعلكم يُطمع فيكم الأعداء تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قاتم حيدي حياد ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراج قلب من قاساكم .

أيّ دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقائلون؟ المغرور والله من غررتموه فأزيكم فقد فاز والله بالسهم الأخبب، ومن رقي بكم فقد رمى بأفوق ناضل، ناضل، أصبحت والله لا أصدق قولكم و لا أطمع في نصركم ولا أؤعد العدو بكم ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبيكم: القوم رجال أمثالكم.....^(١) .

وللخطابة أدلة عقلية إذا كان المخاطبون علماء أو ساسة أو قضاة، وكثيراً ما يجمع الخطيب بين الأدلة الوجدانية والعقلية، ثم لا بد للخطيب من دراية بنفسية السامعين ليشوقهم دائماً حتى لا يملوا، فإن أحس من نظراتهم فترة، أو من حركاتهم ملاماً شوقهم بفكاهة مناسبة أو قصة طريفة ملائمة أو عبارات ملهبة، فانهم ان ملوا انصرفوا عنه و صار يخطب لنفسه و لذا قال عبد الله بن مسعود^(٢) (حدثت الناس ما حدجوك بأسماعهم و لحظوك بابصارهم فإذا رأيت منهم فترة فامسك).

(١) ينظر: احمد صفوت ، جمهرة خطب العرب ، جـ ١ ، ص ١٣٨ . ومعنى حيدي الحياد : كلمة يقولها الهارب الفار أي أبعدي و تنحني عني أيتهما الحرب. السهم الأخبب بمنى الذي لا يصيب و أفوق ناضل بمنى سهم ناقص خارج. (ينظر : أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ١٢٦)

(٢) عبد الله بن مسعود : هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلي أبو عبد الرحمن صحابي من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً و قرباً من رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو من أهل مكة و كان خادماً رسول الله الأمين و صاحب سره و رفيقه في حله و ترحاله توفي في المدينة عن نحو ستين عاماً له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً و أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين خطبة له. (ينظر : الجاحظ ، البيان و التبیین ، ج ٢ ، ص ٥٦ ، أبو نعيم الاصبهاني، حلية الالبياء ، جـ ١ ، ص ١٢٤).

والامثلة على هذا كثيرة نورد بعضها : فقد قام عدي بن حاتم الطائي^(١) يخطب في الناس ليستفزهم الى نصره علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو يعلم ان الامل في ثواب الآخرة لا يكفي وحده في بعث عزائمهم وترغيبهم في الإقدام على الحرب فحبيب اليهم القتال بباعث آخر فضلا عن ثواب الآخرة هو المغنم، فقال فيهم :

" قد كنتم في الجاهلية تقاتلون على الدنيا فقاتلوا في الإسلام على الآخرة فان أردتم الدنيا فعند الله مغنم كثيرة وانا أدعوكم الى الدنيا والآخرة وقد ضمنتم عنكم الوفاء وقد أظلمكم عليُّ والناس معه من المهاجرين والبدريين والانصار فكونوا أكثرهم عددا، فان هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور وللقنيل فيه الحياة والرزق) يشير بهذا الى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)^(٢) .

٥) سرعة البديهة :

كثيرا ما يتعرض الخطيب لسؤال أو مقاطعة أو اعتراض، وقد يستوحي الخطيب من ظروف الحالة وأحداثها، وقد يحس من سامعيه نبوة أو ملالة فيغير مجرى حديثه ليستمعهم نغمات شائقة ولهذا ينبغي ان يكون حاضر الذهن سريع البديهة لا يتحسب في جواب ولا يتلعثم في دفع اعتراض.

(١) عدي بن حاتم الطائي : هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد الحشرج الطائي أبو وهب وأبو طريف الأمير، صحابي كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل روى عنه المحدثون ٦٦ حديث . توفي سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م (ينظر : الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ١١٥ ، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧ م) ج٣، ص ٤٩٥. السهيلي ، الروض الانف ، ج٢ ، ص ٣٤٣، البغدادي، خزنة الادب، ج١، ص ١٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٦٩) .

ولقد يكون سداد الخطيب في الرد على مقاطع أو معارض أقوى تأثيراً في نفوس السامعين من الخطبة كلها، على أنه ان لم تسعفه بديهته بجملة قوية مؤثرة مسكنه فالخير له ألا يرد، لأن سكوته حينئذ خير من كلامه . وإذا كان الباعث على المقاطعة والمعارضة إنما هو التهريج والتعويق والتشفي كان السكوت ترفعا وقلّة مبالاة . ونضرب مثلاً على ذلك فقد خطب أبو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه فقال أحد السامعين (أذكرك من ذكّرتَ به) فأجاب أبو جعفر المنصور بلا تفكير ولا روية (سمعا سمعاً لمن حفظ عن الله و ذكّر به وأعوذ بالله ان أكون جباراً عنيدا وان تأخذني العزة بالإثم لقد ضللتُ إذأ وما من المهتدين وان أنت أيها القائل فوالله ما أردت بها وجه الله ولكن ليقال قام فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت وانا اندركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت وفينا انبئت) ثم عاد إلى الخطبة. ومن الأمثلة على ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين صعد المنبر ليخطب فسقطت ذبابة على وجهه فطردها فعادت إليه فلما تكرّر منها ذلك ضاقت نفسه واضطرب تفكيره فتخلص بآية من القرآن الكريم ملائمة للحالة التي يعانيها فقال : أعوذ بالله السميع العليم (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)^(١) ثم نزل ، فاستحسنوا منه هذا التخلص .

من الأمثلة على موآاة البديهة في المواقف الحرجة ما قاله قتيبة بن مسلم^(٢)

(١) سورة الحج آية رقم (٧٣).

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي: هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي أبو حفص امير ولد سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م ولي الري في ايام عبد الملك بن مروان قتل بفرغانة سنة ٩٦هـ / ٧١٥م. ينظر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٠٠، اليعقوبي، البلدان، ص ١٠٨. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص ٣١١. القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٩م) صبح الاعشى في صناعة الانشاء، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الفكر، (بيروت، ١٩٨٧م).

الباهلي إذ كان يخطب في خراسان^(١) وهو يتقدم في فتوحه فسقط القضيب من يديه فتشاؤم أصدقاؤه وتفاعل أعداؤه وشعر قتيبة بذلك فتناول القضيب من الأرض وقال ليس الأمر على ما ظن العدو وخاف الصديق ولكن كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قرأ عيناً بالإياب المسافر

ولقد يخطئ الخطيب في حادث يرويه أو خبر يقصه فينبري له بعض سامعيه بتصحيح ما أخطأ فيه، فيتخلص من ورطته بسرعة خاطرة تخلصاً ليقاً لا يسبب له حصراً، ولا يزعزع الثقة فيه، وكذلك من أمثلة هذا ما حدث لوكيع بن أبي الاسود التميمي أحد الأبطال المسلمين في فتوح بخارى^(٢) مع قتيبة بن مسلم فقد كان يخطب مرة في جند العرب بخراسان فقال: (ان الله خلق السموات والارض في ستة أشهر)) فرد عليه أحد السامعين بقوله انها ستة أيام فقال وكيع: ((وأبيك لقد قلتها واني لاستقلها)). وكذلك فعل عدي بن زياد الايادي فانه قال في خطبة له : (أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : (ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد)^(٣)) فقال له أحد الحاضرين : ليس هذا من قول العبد الصالح وانما هو قول فرعون فقال عدي : من قاله فقد أحسن.

(١) خراسان، بلاد واسعة اول حدودها فما يلي العراق وقيل خرّ اسم للشمس بالفارسية وامان كأنه اصل الشيء ومكانه وقد فتحت من قبل المسلمين. ينظر: ، اليعقوبي، البلدان، ص ٨٩، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٠١.

(٢) بخارى وردت بالالف الممدودة (بخارا) وهي من اعظم مدن ما وراء النهر وهي كثيرة البساتين واسعة الفواكه، قاعدة ملك السامانية. ينظر: اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٢٣، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤١٩.

(٣) قال فرعون (ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد) سورة غافر اية رقم (٢٩).

٦ حرارة العاطفة :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا لا يُعجِبَنَّكَ من الخطيب قوله حتى يكون مع اللسان أصيلا، فالخطيب المتأثر المعتقد صدق ما يدعو اليه تلتهب كلماته وتستقر في القلوب عباراته، لانها قبس من نفسه المشتعلة وصورة من عواطفه المنفعلة، وسرعان ما يتصل أرواح السامعين بروحه تستمد منها وتتحد معها وتتجاوب وتدفع الى الطريق التي يشقها الخطيب و يريد لها، فهو لا يكاد ينطق بالجملة حتى تكون أسماعهم قد تلقفها وقلوبهم قد وعثها .

محقق إخفاق الخطيب إن تكلم بدون حماسة تتضح في ألفاظه ومعانيه و تتجلى في وقفته وإشاراته لانه بذلك لا يستميل ولا يستثير ولا يسيطر على الجمهور. وقال الحسن البصري لواعظ لم تؤثر به موعظته (يا هذا ان بقلبك لشرا أو بقلبي).

٧ روعة المنظر وجودة الإلقاء :

لابد ان يكون الخطيب رائع المنظر، جيد الإلقاء، لان شخصيته، ووقفته، وإشاراته، وجهارة صوته وحلاوته، وحسن هندامه، وبزته، وحسن خلقه، كل هذه أعوان على التأثير والاستمالة، ونحن نقرأ خطبا كان لها دوي حين سمعت فلا نحس بها روعة لانها استمدت تأثيرها من الاسباب التي صاحبت القاءها. ولقد يعين على روعة المنظر واجادة الالقاء عدة عوامل هي:

أ) الوقفة :

اذ يقف الخطيب أمام الجمهور ليشرّف عليهم، وليتطلّعوا اليه، ويستطيع ان يقف وقفة تضي عليه فخامة وعظمة، مع اجتناب بعض العادات المستهجنة كوضع اليد في الخاصرة أو كثرة الحركة، وذلك بان يعتدل في وقفته ويبرز الى الامام صدره ويقدم رجلا على الأخرى ليتزن جسمه، ويستريح نفسه، ولا يعيا

صوته. وعلى الخطيب إذا ما صعد المنبر ان يترث قليلا ليتعرف على الجمهور وان كان قد سبقه خطيب آخر فان هذا التريث ضروري حتى يهدأ المكان ويَزول صدى الخطيب السابق من الاذان، فينتبه السامعون الى الخطيب الجديد. وقد أعتاد الخطباء في الامم ان يخطبوا وقوفاً، والخطيب العربي كان يقف على شرف من الارض أو على ظهر دابة وكان يفخم منظره بلبس عمامة، والاعتماد على عصا أو مخرصة . أو يعتمد على قوس أو رمح، ولم يخطبوا قعودا الا في الزواج^(١) لان هذا النوع من الخطابة أقرب الى الحديث والحوار، وليست به عاطفة جياشة يستدعي اظهارها ان يعتلي المتكلم نضدا. ولكن العالم اليوم على اتخاذ المنابر أو المناضد العالية، فيقف الخطيب على مرتفع وأمامه نضد، والخطباء الحديثو العهد بالخطابة يؤثرون ذلك لانهم يتوهمون ان النضد يفصلهم من الجمهور الذي يتهيّبونه ولكن الخطباء المدربين يتبرمون بهذه الوقفة لانها تغل حركاتهم وتحبسهم في مكان ضيق .

(ب) حسن الاشارة :

الاشارة لغة منظورة أو لغة متحركة. فإذا اقترنت الاشارة باللغة في موضعها الملائم أثرت تأثيرا عظيما، وصوت الخطيب مهما تتغير نبراته ونغماته لا يكفي للتعبير عن العواطف كلها فلايد من ان تساعده حركات اليد والرأس والمنكبين، وملامح الوجه، ونظرات العينين واشارات الحاجب. فالعين هي النافذة التي تطل منها على العالم، وبطل منها علينا تشف نظراتها عن العواطف وتكشف عما بدخلة النفس

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره

وتعرف بالنجوى الحديث المغمسا^(٢)

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١١.

(٢) اليمين المغمسة: الكاذبة التي تغمس صاحبها في الائم والمراد هنا الحديث الكاذب. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٨١.

فمثلا العين المفتوحة تمثل الغيظ أو الخوف أو الإعجاب، والعين المغلقة تشير إلى التواضع أو البغضاء، والنظر الشَّزْرُ يترجم عن الاحتقار والاستهانة والكرهية، والعين المتحركة يمينا وشمالا تنبئ عن الرياء والاشمئزاز، والعين المتطلعة إلى السماء ترمز إلى الدعاء، والنظرة إلى الارض تعبر عن اليأس أو الخشوع أو الحياء، والعين المستقرة في نظرتها تفصح عن الشدة والإثبات والرجاء، والعين اللامعة ترجمان عن الظفر، والوجه كله معبر عن الانفعالات بما يرتسم على صفحته من خطوط وأشكال، فارتفاع خطوط الجبهة قليلا يمثل الانتباه، وارتفاعها كثيرا يرسم الدهشة أو الفرح العظيم، أو الألم الأليم، وانخفاضها يدل على القلق والتفكير، والوقفة المعتدلة الناهضة تدل على التحدي، والوقفة المنحنية تدل على الحنان والشفقة والاستسلام، وانطلاق الذراع إلى الأمام ينبئ عن التقدم وعن التهديد، وهكذا وقد يتهدد رافع الصوت والسيف بإشارة من سيفه أو سوطه فيكون ذلك رادعاً وزاجراً ووعيداً وتحذيراً وقد يجد الخطيب من اللائق ألا يصرح بلفظ فيشير إشارة تؤدي معناه فتكون أبداع دلالة وأليق بالمقام، والإشارة تساعد الخطيب على التنفس وإعلاء الصوت، والخطيب الذي يقف جامدا لا يشير يشبه مذياعا يتكلم .

ذكر الجاحظ ان أبا شمر كان إذا ناقش لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه، حتى كان كلامه كأنما يخرج من صدع صخرة وكان يعيب صاحب الإشارة بافتقاره إليها، وعجزه عن بلوغ غايته، ويقول ليس من المنطق ان تستعين عليه بغيره ولكنه اضطر في مجادلة بينه وبين ابراهيم بن يسار النظام^(١)

(١) ابراهيم بن يسار بن هاني النظام سمي بالنظام لأنه كان نظاماً للكلام المنثور والشعر الموزون وقيل كان ينظم الخرز في سوق البصرة. وهو شيخ المعتزلة توفي سنة ٢٣١هـ. (ينظر: البغدادي، تاريخ، تاريخ بغداد، ج٦، ص ٩٧، الشريف المرتضى، ج١، ص ١٣٤، الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٥م)، الملل والنحل، صححه وعلق عليه: الشيخ احمد فهمي محمد، ط١، (الجيزة، ١٩٤٨م) ج١، ص ص ٥٤-٥٥. الشريف المرتضى امالي المرتضى، ج١، ص ١٣٢، البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص ٩٧.

إلى تحريك يديه، والخروج عن تزمته وتوقره، وكان الذي غره ان اصحابه كانوا يستمعون منه، ويسلمون له، ويميلون اليه، ويقبلون كل ما يورده عليهم، ويثبته عندهم فلما طال عليه توقييرهم له وترك مجاذبتهم اياه وخفت مئونة الكلام عليه نسي ما يتذرع به المجادل في منازعة اكفائه وخصومه^(١)

ولابد ان يراعي الخطيب أموراً عدة هي:

١- ان يراعي ان الاكثار من الاشارة باليد خطأ، وصرف للسامع عن الانتباه فعلى الخطيب ان يقلل منها.

٢- وان يأتي بها في مواضعها الملائمة لها المحتاجة إليها.

٣- وان يجعلها موافقة للمعنى وسابقة له فيشير، ثم ينطق واذا اجتمعت في الجملة صفتان جعل الاشارة للاخيرة كما لو قال الصهيونيون نعم لن يقووا على نضال العرب الابطال الاسود.

٤- وعليه ألا يحجب عن الناظرين وجهه بيده، أو يعترض بها جسمه، وأن تكون اشارته بيده سريعة ان كان الكلام حاداً لتطابق العاطفة، وان يستعمل يمينه اذا كانت رجليه اليمنى الى الامام والعكس.

٥- وان يتذكر ان بعض الموضوعات لا تحتاج الى افتتاح في الالتقاء كالمناسبات الصغيرة، وان يكون الالتقاء والتعبير موافقين لدرجة تأثره فاذا لم يكن انفعاله قوياً فليتكلم كما يحس.

جـ (جهازة الصوت وحلاوته :

الصوت نعمة من الله تعالى على من يغني، أو يخطب، لأنه يسحر ويبهر بحلاوة نغماته، وصفاء رناته، وحسن توقيعاته، وكثيراً ما يسحر الخطيب بصوته اكثر من سحره ببلاغته، فتتمايل النفوس بنغمة كما تتمايل الأفنان بنسيم السحر، والصوت الجهير القوي الذي يدوي في الحفل من عَدَدِ الخطيب لامتلاك الجمهور

(١) ينظر : الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ، ص ٩١.

واسماعه كله، وقد ذاعت مكبرات الصوت في عصرنا هذا ولكنها تذهب بكثير من نغمات الخطيب ونبراته وتعبير صوته في الأماكن المغلقة أقوى أسماعاً منه في الخلاء، وهو في الهواء الساخن أسرع سرياناً منه في الهواء البارد. وعلى الخطيب ان يتجه بصوته الى وسط المجتمع لا إلى جانبيه ولا إلى فوق. وعليه أن يوقع بصوته فيجعل نبراته ونغماته ووقفاته ملائمة للأفكار والعواطف، فهو مبتهج تارة، وشاك تارة، وهو ساخط حيناً، ومتهم حيناً ومتعجب حيناً، فلا بد أن ينوع صوته ليلائم شعوره، ويساعده على التعبير، كذلك مما ينبغي أن يراعيه العناية بمقاطع الجمل لتتصل في الأذان، فإن القطع المبهم ينطوي بين شفتيه فلا يُسمع ولا يُفهم. وإذا كانت الخطبة طويلة والمكان فسيحاً فعلى الخطيب أن يقتصد في صوته حتى لا يكل. ومما يساعده على الاحتفاظ بقوة صوته في الخطبة كلها أن ينطق متمهلاً، لان التسرع والتعجل في النطق يضعف الصوت ويجهد.

وكان العرب قبل الإسلام يمدحون الخطيب الجهير الصوت، ويذمون خافته ولذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم وذموا صغره، قيل لأعرابي ما الجمال؟ قال طول القامة، وضخم الهامة ورخب الشّدق وبعد الصوت، ويقول الأعشى في وصف خطيب بشدة الصوت :

فيهم الخِصْب^(١) والسماحة والنجدة جمعاً والخاطب الصّلاقُ ويهجو بشار بخفوت الصوت بقوله :

ومن أعجب الأيام ان قمت ناطقاً

وأنت ضئيل الصوت منتفخ السُخرِ

بل هم مدحوا جهارة الصوت حتى في غير خطبة، فقد مدح العباس بن عبد المطلب بأنه كان جهير الصوت وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، فنادى العباس : يا

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١١٩. والصلاق يعني الشديد الصوت. والسخر يعني

الرنة، ينظر أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٣٦٨، م. ن، ص ٢٨٩.

أصحاب سورة البقرة هذا رسول الله فترجع القوم وأنزل الله عز وجل النصر
وأتى الفتح. ومدح العُماني هارون الرشيد ^(١) بقوله :

جهير العُطاسِ شديد النياطِ

جهيرُ الرواءِ جهيرُ النغمِ

وأثر عنهم ما يدل على أن قوة الصوت ترهب، فإن وفد الروم لما أتى عبد الملك
بن صالح ^(٢)، وهو في بلادهم أقام على رأسه رجالاً في السماطين ذوي
أعناق ضخمة ورؤوس عظيمة، ومناكب وأجسام وشوارب وشعور، فبينما هم قيام
يكلمونه ومنهم رجل واقف خلف البطريق إذ عطس عطسة ضئيلة فلحظه عبد
الملك فلم يدر أي شيء أنكر منه فلما مضى الوفد قال له: ويلك هلا إذا كنت ضيق
المنخر كزَّ الخيشوم أتبعثها بصيحة تخلع بها قلب العلعج .

وبالغوا في ذلك الى حد لا يصدق فزعموا أن أبا عرة الذي يقال له أبو عروة
السباع - كان يصيح بالسبع وقد احتمل الشاة فيخيلها ويهرب فضرب النابغة
الجعدي المثل به في قوله :

^(١) هارون الرشيد: هو هارون (الرشيد) بن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي أبو جعفر خامس
خلفاء الدولة العباسية في العراق ولد بالري، بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ توفي في سناباذ من
قرى طوس سنة ١٩٣هـ (ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٤٣-٤٤،
اليقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ١٣٩ .

^(٢) عبد الملك بن صالح : هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله العباسي ، ولي الموصل
للهادي سنة ١٦٧هـ وعزله الرشيد سنة ١٧١ هـ ثم ولاء المدينة وبلغه إنه يطلب الخلافة
فحبسه ببغداد سنة ١٨٧هـ ، ولما مات الرشيد أطلقه الأمين وولاه الشام والجزيرة سنة
١٩٣هـ فأقام بالرقعة إلى ان توفي سنة ١٩٦هـ، ينظر: الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ/
١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. احسان عباس، دار صادر (بيروت، ١٩٧٤م)
ج ٢، ص ١٢ . (الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٣٤)

وأزجر الكاشح العدو إذا اغتا

بك عندي زجرا على أضَم^(١)

زجرَ أبي عروة السباع إذا

اشفق ان يلتبسَن بالغنم^(٢)

د (جمال الهدنام :

الهدنام المنسق يعزز ثقة الخطيب بنفسه ويكسبه في أعين الناس مهابة، والناس قد كانوا يتأثرون أول وهلة بالبزة الحسنة والمنظر الجليل، وكان العرب قبل الإسلام وما بعد الإسلام يلبسون العمام ويفخمون منظرهم إذا ما خطبوا.

ذكر الجاحظ في كلامه على مذهب الهنود في البلاغة (وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته، وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة والالفاظ معتدلة واللهجة نقيّة، فان جامع ذلك السنُّ والسَمْتُ والجمالُ وطول الصمت فقد تم كلّ التمام مكمل كل الكمال)^(٣).

وروي أن إياس بن معاوية المزني^(٤) - وكان صادق الظن قوي الحنس، ولاء عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ومات سنة ١٢٢هـ اتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس وأراه أحمر دميما رث الهيئة قشيفا فاستهانوا به، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا : الذنب مقسوم بيننا وبينك أثبتنا في

(١) على أضَم يعني على حقد وغضب. ينظر : ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٣٨٤

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ١١٩

(٣) ينظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ٨٧. سمت حسن الهيئة، ينظر : أبو بكر الرازي ،

مختار الصحاح ص ٣١٢

(٤) إياس بن معاوية بن قرّة المزني أبو وائلة ، قاضي البصرة وأحد أعاصيب الدهر في الفطنة

والذكاء قال عنه الجاحظ إياس من مفاخر مصر توفي سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م . (ينظر :

الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ٥٦. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٨١. الزركلي ،

الأعلام ، ج ١ ، ص ٣٧٦).

زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك^(١).

على ان بعض الخطباء يعتمدون على مهابتهم المعروفة وشهرتهم الذائعة فلا يتأنقون في مظهرهم، واذا كان في هذا بعض الحق فان الخطيب المجهول يخطئ إن لم يهتم بمظهره وهندامه، لأنه من مقويات شخصيته، فمعاوية على حق حين نظر الى النخار بن أوس العذري الخطيب المناسب في ناحية من مجلسه فأنكره وانكر مكانه زراية به وقال من هذا؟ فقال النخار: يا أمير المؤمنين ان العباءة لا تكلمك أما يكلمك من فيها. لذلك كله اخالف، سهل بن هارون في دعواه ان الجمع يقضي للدميم الزري الهيئة على الوسيم البهي اللباس اذا تساويا في البلاغة قال سهل:

(لو ان رجلين خطبا، او تحدثا، أو احتجا او وصفا، وكان احدهما جليلا، وبهيا، ذا لباس نبيلًا، وذا حسب، شريفاً، وكان الآخر قليلاً قمينا، وبأد الهيئة دميماً، وخامل الذكر، مجهولاً ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النليل الجسم، ولباد الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه، ولصار التعجب منه سبباً للتعجب به، وكان الاكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أصغر، ومن بيانه أياس، ومن حسده أبعد، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه، وكبر في عيونهم، لأن الشيء من اغرب معدنه أغرب وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان اطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبعد)^(٢)

وهو رأي عماده القرض والقياس، اذ لا يصبح قياساً وبعيداً غاية البعد من الواقع الشائع بين الناس ومن دراسة نفسية الجماهير.

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٩٥

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٨٨

ولست أقصد بجمال الخلق أن يكون الخطيب وسيما، مليحا، أسيل الخد، أدعج العين، وانما أقصد أن يكون مقبول الصورة غير دميم ولا منفر، لان ذلك يقربه إلى قلوب السامعين. والرجل الصحيح الجسم الحسن القامة لا يحتاج في إظهار شخصيته والتأثير في سامعيه إلى ما يحتاج إليه الضئيل الجسد الدميم الصورة، والناس مولعون بالقوة والسلامة والاستواء منذ كانوا. وتكلم علباء بن الهيثم السدوسي^(١) لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان علباء أعور دميما، فلما رأى عمر براعته، وسمع حسن بيانه، أقبل يُصمّد فيه بصره ويُحدّره، فلما خرج قال عمر: لكل أناس في جميلهم خبرة. على ان براعة الخطيب، وبلاغته، وجهارة صوته، وروعة وقفته، قد تتغلب على دمامته. فقد كان الأحنف بن قيس^(٢) صغير الرأس مائل الأنف، مسترخي الأذنين، مترابك الاسنان، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، خفيف العارضين، مقوس الرجلين، لكنه كان خطيبا مفوها إذا تكلم جلى عن نفسه.

لكن قبح الخلقَة لم يعق واحداً من هؤلاء عن اختلاب سامعيه، لان جمال الخلقَة من المكملات الثانوية للخطيب. وكأنما أراد ضمرة بن ضمرة^(٣) هذا المعنى

(١) علباء بن الهيثم السدوسي : هو علباء بن الهيثم بن جريز السدوسي ، شجاع ، من الفصحاء أدرك الجاهلية والإسلام وشهد الفتوح في عهد عمر رضي الله عنه الله عنه وسكن الكوفة ثم دعا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام واستشهد في واقعة الجمل سنة ٣٦هـ / ٦٥٦ م. (ينظر: ابن حزم الأندلسي، جمهرة انساب العرب ص ٢١٧ ، الزركلي، الأعلام ج ٥، ص ٧٥؛

(٢) الأحنف بن قيس : هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي أبو بحر سيد تميم يضرب به المثل في الحلم ولد في البصرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم من الدهاء العظماء الفصحاء وسمي بالأحنف لحنف في رجله أي اعوجاج. (ينظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى م ٧ ص ٦٤ ، ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ، ج ١ ، ص ١٩١)

(٣) ضمرة بن ضمرة : هو ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي من بني دارم ، شاعر جاهلي وخطيب من الشجعان الرؤساء كان أسمه شقة بن ضمرة فسماه النعمان ضمرة و هو صاحب يوم ذات الشقوق من أيام العرب في الجاهلية. (ينظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) معجم البلدان، طبع دار صادر (بيروت ، ١٩٥٧ م) ، ج ١ ، ص ٩٢ ، الزركلي ، الأعلام ، ج ٣ ، ص ٣١١) .

في رده على النعمان بن المنذر ملك الحيرة^(١)، فان النعمان لما نظر إليه ورأى دمامته ونحوه جسمه قال: تسمع بالمُعيديّ خير من أن تراه، فقال ضمرة: أبيت اللعن، ان الرجال لا تكال بالقفزان^(٢)، وإنما بأصغريه قلبه ولسانه .

٨- سمو الخلق :

يقف الخطيب من الجمهور موقف القائد أو الرائد، يهدي إلى الحق، ويبصّر بالخير، ويحذّر من هلكة أو غفلة، ويشجع على قتال أو استبسال، ويدعو إلى هدوء وطاعة..الخ. فإن اشتهر بخيانة أو نفاق أو نفعية أو جبن أو رذيلة ما، كان أول هادم لمكانته، ومضيق لتأثير خطبته، وامترى السامعون في صدق كلامه وخلوص نيته.

فإذا ما كان حسن السمعة اثر كلامه في سامعيه، لأن حسن سمعته كالمقدمة للاقتناع بقوله، إذ إن مكانته الخلقية العالية تبعث على تصديقه، ومن العيب أن يدعو خطيب الى فضيلة، وهو معروف برذائله، أو يتحدث عن الحرية، وهو من أنصار الاستبداد، أو عن الصالح العام، وهو معروف بالحرص على منافع الخاصة. وأخلاق الخطيب نفسه تنتهي به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة محضرة بشكل يبعث على الثقة، ويملاً نفس الخطيب بالطمأنينة. وليس صحيحاً أن نصدق قالة الذين كتبوا في الخطابة، من ان أمانة الخطيب ونزاهته لا دخل لها في الإقناع، فنحن نقرر على عكس ما يقولون أن (للصفات الخلقية التي يمتاز بها

(١) النعمان بن المنذر : هو النعمان بن المنذر بن أمريّ القيس اللخمي من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية وهو صاحب إفاد العرب على كسرى وباني مدينة النعمانية على ضفة دجلة اليمنى مات في السجن سنة ١٥هـ/٦٠٨م ، (ينظر: ابن الأثير، الكامل ، ج١ ، ص١٧١- ص١٧٣. الزركلي ، الأعلام ، ج٩، ص١٠)

(٢) القفزان يعني جمع قفيز وهو المكيال . ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص٥٤٦

الخطيب اكبر الأثر في قوة الإقناع^(١)، عليه ان يكون شجاعا في موقفه، وفي إعلان رأيه، ولا يرتعد، ولا يماري ولا يضطرب، فإذا ما وثق في نفسه وعرف ما يريد أن يقول، وعبر عنه تعبيراً خطابياً فنيا فقد حقق الغرض المنشود. وكثيراً ما يضطر إلى تنفيذ حجج خصمه في السياسة والقضاء ليفندها في أدب رفيع. وإذا هاجمه زميل فليتلق هجومه بصبر وهدوء؛ لأن هذا يرفع مكانته، ويبعد عن اخطأ فكرته. وان غضب فليغضب غضباً خطابياً لأسباب فيه. وقد تدعو الضرورة في خطبة حفالية أو دينية إلى إبراز التعاون بين الخطباء، كأن يخفق أحدهم فيشيد به تاليه، ويثني عليه، غير متظاهر بأنه يحاييه، أو يجامله، أو يجبر زلته، وكثيراً ما تتأثر الجماعة بهذا التعقيب وتتقبله بل تعتقده.

(١) ينظر: طاليس ، أرسطو، الخطابة ، لترجمة العربية القديمة، تحقيق : عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، (بيروت ، ١٩٧٩) ، ج ١ ، ص ١٠١

المبحث الرابع

نشأة الخطابة وعوامل رقيها

الخطابة ضرورة اجتماعية وسلاح معنوي :

منذ اجتمع الناس في مكان واحد استوطنوه، وتفاهموا بلسان واحد، عرفوا الخطابة، لانه من الطبيعي ان يختلفوا في رأي أو عقيدة، ومن الطبيعي ان يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة، فيحاول المتفوق ان يستميل إليه من يخالفون، وان يقنعهم، فإذا ما أقنعهم واستمالهم فهو خطيب وقوله خطبة، ثم انه من الطبيعي أيضا ان تنشأ أمور تستدعي تعاون المجتمع، وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك أو اتقاء ضرر، فيتصدر بعض النابهين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها عندهم في ذلك خطابتهم.

على ان الناس في حياتهم القديمة تسلحوا بأسلحة مادية للدفاع والعدوان، وتسلحوا أيضا بسلاح معنوي هو اللسان، ومازالت الخطابة إلى الآن سلاحا مرهفا تتصاول به الأمم، وان جيّشت جيوشها وافتتت في اختراع القذائف والمدمرات.

لذلك لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها، فقد حفظها خط آشور المسماري، قيدها خط الفراعنة الهيروغلوفي، ثم رواها تاريخ اليونان السياسي والأدبي منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه، وبها أذاع الدين انبياء بني إسرائيل، وكان لها مكانها العظيم في مجامع العرب قبل الإسلام وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص.

ولذلك ارى ان الخطابة قد وجدت منذ ان وجدت الخليفة أي منذ أن خاطب الله سبحانه وتعالى الملائكة وقال: (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون)^(١).

(١) سورة البقرة آية رقم (٣٠).

أما عوامل رقيها^(٢) فيمكن إجمالها بما يأتي:

١) الحرية :

انما تزدهر الخطابة في عصور الحرية الفكرية والقولية، فيتحرك كل شخص في تفكيره، وينطلق إلى إذاعة ما اهتدى إليه، وهو آمن عقاب الحاكم الظالم، واستبداد المسلط الغاشم، ولا يتهيب الخطباء موضوعاً أو محفلاً ويحتذي بهم غيرهم من الطامحين إلى الشهرة، أو التواقين إلى الإصلاح فتنتشر الخطابة في الشعب، وتتعدد أنواعها، وتعبّر تعبيراً صادقاً عن عواطف القائلين. والخطباء على كثرتهم يتسابقون إلى الإجابة ويتنافسون في طيران الصيت.

٢) طموح الأمة إلى حياة أرقى:

وتزدهر الخطابة أيضاً إذا تفتش في الأمة سخط على نظام من نظمها الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، وارتبط هذا السخط بطموح إلى مثل أعلى، وحياة أرقى، وجدّ في تبديل الحالة وتحقيق المثل.

وقد ازدهرت الخطابة عند العرب قبل الإسلام لانهم، عاشوا طلقاء في جزيرتهم لا يحد من حريتهم تعسف من حاكم، أو نظام جائر، فهم أحرار في تفكيرهم وفي البوح بها، والدعوة لها، من أجل حريتهم في التنقل في هذه البيئة الرحبة. ثم أتى الإسلام يدعو إلى توحيد الخالق سبحانه، ونبذ أديانهم الوثنية، وكان صراع عنيف معنوي ومادي بين الدعاة إلى الجديد وبين المستمسكين بالقديم، وانظم الصراع إلى الحرية، فانتعشت الخطابة، ثم قامت الدولة الأموية وانقسم المسلمون إلى شيع سياسية ودينية ولكل حزب خطباؤه المصاقع، وهم جميعاً أحرار لا يدينون إلا لعواطفهم الثائرة فأينعت الخطابة. فلما آلت الخلافة إلى بني العباس وأرسوا قواعد ملكهم ونكلوا بالأحزاب المخالفة لهم، وضلوا عن المثل الأعلى الذي يجب ان ينطلقوا إليه، أو ضلّ عنهم هذا المثل، ركبت الخطابة وبعث صوتها حتى اختنق إلى أوائل العصر الحديث.

(٢) ينظر: الدكتور محمد طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ص ٧٧.

٣) الأمية وسرعة البديهة :

وإذا نفشت الأمية في شعب لجأ الى الخطابة وسيلة للإقناع والاستمالة، وإذا كان انتشار التعليم وذيوع الصحافة يرقى الخطابة من حيث موضوعها وفنهما، فإنه يضعفها من حيث شمولها وذيوعها . وهذه الأمية مشفوعة إلى استعداد العرب الفطري لإجادة القول رقت الخطابة عندهم، لان أميتهم أرهفت حوافظهم وذواكرهم فكانوا يتدفقون في الخطابة تدفقاً. وأميتهم بعثت في نفوس المعمرين منهم ان ينفضوا ماضيهم وأحداثهم إلى السامعين، ليعظوهم او لينفسوهم عن انفسهم بالتحلل من بعض ما يتقلهم من اخبار وأسرار، أو ليُزهوا بما كان لهم فيه من شأن عظيم، ومن هذه الأمية المربية للحافظة والذاكرة نشأت سرعة البديهة وإسعاف خاطر، مما جعل أبا حيان^(١) يروي في مقابساته " نزلت الحكمة على رؤوس الروم وألسن العرب وقلوب الفرس وأيدي الصين ٠٠٠ وقد زادتهم جزيرتهم شراً، ولكنهم عوّضوا الفطنة العجيبة والبيان الرائع والتصرف المفيد، والاعتدال الظاهر ٠٠٠ ووصلوا بحدة الذهن الى كل معنى معقول وصار النطق الذي يان به غيرهم من الاستخراج مركزاً في انفسهم من غير دلالة عليه ٠٠٠ بل فشا فيهم كالاتقاء والوحي، لسرعة الذهن وجودة القرينة". ويقول الجاحظ^(٢)

(١) ابو حيان التوحيدي : هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، ابو حيان فيلسوف، متصوف معتزلي وهو شيخ الصوفية ولد في شيراز وأقام في بغداد وصحب ابن العميد والصاحب بن عباد من زنادقة الاسلام من كتبه، الامتاع والمؤانسة، المقابسات، البصائر والذخائر، توفي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، (ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ١، ص٣٣٩)، الزركلي، الاعلام ، ج٥ ص١٤٤

(٢) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر: وهو عمر بن بحر بن محبوب الكناي بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، له مصنفات ، الحيوان ، البيان والتبيين ، البخلاء. ولد وتوفي في البصرة سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، (ينظر: البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٢، ص٢١٢، ابن خلكان. وفيات الاعيان، ج١، ص٣٨٨. ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج٦، ص٥٦-٨٠. ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص٢٨٩.

(وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اصالة فكرة ولا استعانة. وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام ، والى رَجَز يوم الخصام ، او حين ان يمتَح على رأس بئر، او يحدو ببعير، او عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حرب، فما هو إلا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد، فتأتيه المعاني ارسالا، وتتثال عليه الالفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يُدرسه أحداً من ولده وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكفون، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر، وهم عليه اقدر واقهر، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه في البيان ارفع، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم اسهل، وهو عليهم ايسر، من ان يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله^(١).

٤) الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية :

وإذا اضطرت الأمة الى تغيير سياستها، او تبديل دينها، او إصلاح نظام اجتماعي من نظمها، انبعث منها خطباء يتصدرون الدعوة ويحتضنونها، فيدعون الى الجديد، ويكشفون عن مزاياه، ويزعزون القديم من النفوس، وينفرون منه حتى يقوضوه. ولكن في الناس من يحرص على القديم ويلاحي عنه فيصطرع هؤلاء وهؤلاء، وهم جميعا يتنزعون بالخطابة، وان تسلحوا بأدوات القتال وقد مرّ اثر الإسلام والنصرانية واثر الدعوات السياسية في رفع شأن الخطابة.

٥) الحروب والثورات :

قد تشتعل حرب بين أمتين، لطمع إحداها في الأخرى، أو منافستها لها في مكانة أو مجال حيوي، أو جريا وراء شهوة الغلب، أو انتقاماً وثأراً فتطلق الألسنة داعية إلى جمع الكلمة، ووحدة الغاية، وبذل المال والروح، كما كان يحدث بين القبائل العربية .

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٣، ص ص ٢٠-٢٦

٦ الأحزاب السياسية :

وإذا تعدت الأحزاب السياسية في أمة كثر خطباؤها وارتقت خطابتها، وكلما تعددت الأحزاب والمذاهب والخلافات الفكرية في أي مجتمع نجد ان الخطابة تزدهر وكان في تعدادها انعاش للخطابة وهناك عوامل اخرى تكون مسببة في رقي الخطابة، منها انتشار التعليم، وكثرة المؤتمرات، وتعدد المشكلات العالمية بين الأمم، كما كان بين العرب والرومان، والفرس والأحباش وغيرهم^(١).

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ٤٥ - ٤٩.

المبحث الخامس

أشهر الخطباء في عصر ما قبل الإسلام مع نموذج لخطبهم

لئن حفل التاريخ بما خلفه العرب من شعر، ولئن كان ذلك الشعر مدعاة للفخر والاعتزاز، لانه صور عقلية الأمة ورسم خطوط حياتها، فلقد حفل هذا التاريخ بالثر العربي، الذي لم تكن أهميته لتقل عن أهمية الشعر، فالثر الجاهلي من خطبة، ومثل ووصية، صور ما يتلجج في صدر البدوي من آمال، واحتضن ما يدور بخلده من مشاعر، وأوصل إلى الأسماع ما يريد بثه من لواعج وأفكار، وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية والأدبية وجدنا عددا كبيرا من الخطباء، وعليه فكان لكل قبيلة من القبائل خطيبها، بل لكل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب، والجاحظ قد عرض أسماء عدد كثير من أسمائهم في كتابه البيان والتبيين، منهم قيس بن شماس في يثرب وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، أما مكة المكرمة فمن قدماء خطبائها هاشم، وأميرة ونفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان فيها خطباء كثيرون وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة وهي تشبه مجلس شيوخ مصغرا كانوا يجتمعون فيها ويخطبون^(١) ويتحاورون، ومن عرف فيها بالخطابة عتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو الأعم وهو الذي قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه واله وسلم "يا رسول الله أنزع ثيبي^(٢) السفلين حتى يدلع^(٣) لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا فقال الرسول صلى الله عليه واله وسلم "لا أمثل فيمثل الله بي، وان كنت نبيا، دعه يا عمر،

(١) ينظر: الحلبي، أبو الفرج نور الدين علي بن ابراهيم بن احمد الحلبي الشافعي، (ت: ١٠٤٤هـ - ١٦٣٤م). السيرة الحلبية، وهو الكتاب المسمى انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، ضبطه وصححه: عبد محمد الخليفي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٠م)، ج٢، ص ١٢٤.

(٢) الثنيتان بمعنى الأضرار في مقدمة الفم . ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٨٧.

(٣) يدلغ معناه ستوخي فلا يحسن النطق. ينظر: م. ن، ص ٢٠٩ .

فحسى ان يقوم مقاماً تحمده^(١). وممن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن
الظرب في عدوان، وربيعة بن خزار^(٢) في قبيلة أسد وحنظلة بن ضرار في ضبة
وقد طال عمره حيث انه من المعمرين حتى أدرك يوم الجمل^(٣)، وعمر بسن كلثوم
في قبيلة تغلب، وهاني بن قبيصة الشيباني في قبيلة شيبان وهو خطيب يوم ذي
قار^(٤)، وزهير بن جناب في قبيلة كلب وقضاعة^(٥)، وابن عمار في قبيلة طي
وهو خطيب^(٦) مذحج كلها، ومن خطباء غطفان قيس بن خارجة بن سنان
الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل، ومن خطباء تميم المفويهين
اكتم بن صيفي وضمرة بن ضمرة، ويروى انه لما دخل على النعمان بن المنذر
زرى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقتله فقال للنعمان "تسمع بالمعيدي لا ان
تراه فقال أبيت اللعن " ان الرجال لا تكال بالقفران^(٧) ".

ومن خطباء تميم أيضا عطارد^(٨) بن حاجب بن زرارة وهو خطيب وفدها

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ٣١٧

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٣٦٥

(٣) ابو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ج١، ص ٦١

(٤) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٣٤١. أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ج ٢٠،

ص ١٣٧، ابو علي القالي، الأمالي ج١، ص ٩٢

(٥) ابو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ج١، ص ٦٥

(٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ٣٤٩

(٧) القفران يعني جمع قفيز وهو مكيال عراقي. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٤٦

(٨) عطارد بن حاجب بن زرارة: هو عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي خطيب من سراة بني

تميم، وقد على النبي صلى الله عليه وسلم فكان خطيبه واستعمله الرسول محمد صلى الله عليه

وسلم على صدقات بني تميم، توفي نحو سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م، ينظر: (ابن سعد، الطبقات

الكبرى، م ١، ص ٢٢٤. الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١٧٨. الزركلي، الاعلام، ج ٥،

ص ٣٠. الأمدي، سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم (ت ٦٣١هـ / ١٢٣٣م)

المؤتلف والمختلف تحقيق: أ. د. أحمد محمد المهدي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية،

(القاهرة، ٢٠٠٠م) ص ٢٩٩.

بين يدي الرسول صلى الله عليه واله وسلم، ومنهم عمر بن الأهتم المنقري^(١) ولم يكن في بادية العرب في زمانه اخطب منه، ويروى ان الرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم سأله عن الزبرقان^(٢) بن بدر فقال " مانع لحوزته، مطاع في أذنيه " فقال الزبرقان " إما انه قد علم اكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي فقال عمرو: اما لئن قال ما قال، فوالله ما علمته الا ضيق الصدر زجر المروءة، لئيم الحال حديث الغنى، فلما رأى انه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الانكار في عيني رسول الله قال " يا رسول الله! رضيتُ فقلتُ احسن ما لا علمت، وغضبتُ فقلتُ اقبح ما علمت وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة، فقال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم " ان من البيان لسحرا ". ومن خطباء بني منقر التميميين أيضا قيس بن عاصم المنقري^(٣) الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه واله حين رآه: هذا سيدُ أهل الوبر^(٤) وهو الذي قال فيه عبدة بن الطبيب حين

(١) عمرو بن الأهتم المنقري : هو عمر بن سنان بن سمي التميمي المنقري أحد السادات الشعراء والخطباء في الجاهلية والإسلام من أهل نجد ولقب أبوه بالأهتم لان ثيابه هتمت يوم الكلاب وكان يدعى المكحل لجماله وهو الذي قيل فيه : انما شعره حلل منشرة بين أيدي الملوك ، تأخذ منه ما شاءت ، ولم يكن في بادية العرب اخطب منه. (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٧، ص ٢٧. الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) الزبرقان بن بدر: هو الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان وهو من أسماء القمر لحسن وجهه وياه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه وكف بصره في اخر عمره وكان فصيحاً وشاعراً واديباً وخطيباً وقال فيه النابغة عدوا الذئاب على من لا كلاب له. (ينظر: ابن سعد ، الطبقات الكبرى، م ٧، ص ٢٦. ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، ج ١، ص ٥٤٣ .

(٣) قيس بن عاصم المنقري : وهو من قبيلة منقر من خطباء العرب قبل الاسلام توفي سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م. (ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ، ج ١، ص ٢١٩، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ١، ص ٢٥٥.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ، ج ٢، ص ٣٢ .

وما كان قيسَ مُلكةَ هُلكَ واحدٍ
ولكنه بُنيان قوم تهتما

ومن الخطباء المشهورين عتبة^(٢) بن ربيعة وكذلك من خطباء العرب قيس^(٣) ابن زهير ولييد^(٤) ابن ربيعة العامري وكذلك من خطباء العرب المشهورين الفضل ابن^(٥) عيسى الرّقاشي كان من اخطب الناس وكان متكلمًا قاصا مجيدا وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وكثير من الفقهاء ولا يركب إلا الحمير.

(١) الجاحظ البين والتبيين ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .

(٢) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد كبير قریش خطيباً، نافذا قتل في معركة بدر الكبرى سنة ٢هـ - ٦٢٤م. ينظر: السهيلي، الروض الانف، جـ ١، ص ٣٣٧. الحلبي، السيرة الطيبة، جـ ٢، ص ١٣٨

(٣) قيس بن زهير هو قائد حرب داحس والغبراء وكان حكيما خطيبا وشاعرا واحد السادة القادة في العراق ويلقب بقيس الرأي توفي في عمان سنة ١٠هـ / ٦٣١م. (ينظر : الزركلي ، الاعلام ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩-٣٦٠. السهيلي ، الروض الانف، جـ ١، ص ١٢١ .

(٤) لييد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري احد الشعراء والخطباء الفرسان والاشراف في الجاهلية من اهل عالية نجد اندرك الاسلام ووفد على النبي ويعد من الصحابة والمؤلفة قلوبهم توفي سنة ٤١هـ / ٦٦١م . (ينظر : ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ص ١٣٥. البغدادي ، خزنة الادب للبغدادي ، جـ ١، ص ٣٣٧. الزركلي، الاعلام ، جـ ٦، ص ١٠٤

(٥) الفضل بن عيسى الرقاشي. (ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٠٦. ابن قتيبة: ابومحمد عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ /) عيون الاخبار ، المؤسسة المصرية العامة (مصر ، ١٩٦٣) ، جـ ١، ص ١٦٠.

ومن خطباء العرب المشهورين قُس^(١) بن ساعدة الايادي

التعريف به: هو قُس بن ساعدة بن عمر بن عدي بن مالك من بني اياد احد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية كان اسقف نجران، ويقال انه اول عربي خطب متوكنا على سيفه، او على عصا واول من قال فني كلامه (اما بعد) وكان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه وهو محدود في المعمرين طالت حياته وادركه النبي صلى الله عليه واله وسلم قبل النبوة ورآه في سوق عكاظ وسأل عنه بعد ذلك فقال (يُحْشَرُ امةٌ وحده) توفي سنة ٢٣ق.هـ/٦٤٠م .

ونحن إذا تمنا بخطبة قُس بن ساعدة الايادي، وهو يعظ الناس في عكاظ وجدنا السجع في مثل هذه الخطب يظل بارزا في تضاعيف النص ليسودي نفس مهمته التأثيرية ويقال ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم حضر هذه الخطبة لقس بن ساعدة وكان يومئذ فتى في مقتبل العمر على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام مؤثق و يروى ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه قال أيضا لست انساه بسوق عكاظ فقال حين خطب فأظن ب و رغب، و رهب، وانذر، وقال:

نموذج لاحدى خطب قس بن ساعدة الأيادي

(أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتنعوا، انه من عاش مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات. وأبء وأمهات، وأحياء وأموات. وجمع وشتات، وآيات بعد آيات. ليل موضوع، وسقف مرفوع

(١) ينظر: الزركلي ، الاعلام ، ج٥ ، ص ٣٩. أبو الفرج الاصفهاني، الاغانى، ج٤١، ص ٤٠، ابن سيد الناس، عيون الأثر في أخبار المغازي والسير، ج١ ص ٦٨. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٩م). تلخيص الخطابة، مطبعة المثني، (بغداد، ١٩٧٠م) ص

ونجوم تغور وأراضي تمور، وبحور تموج، وتجارة تروج، وضوء وظلام، وبر
وأثام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب، إلا أن أبلغ العظات، السير في الفلوات،
والنظر إلى محل الأموات. إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً ليل داج،
وسماء ذات أبراج وأرض ذات رتاج وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون
فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا^(١).

وهي طويلة يتخللها شعر وتبرز فيها جميع سمات الخطيب الوعظية من سجع
وققرات قصار، ولغة منتقاة وألفاظ مانوسة خفيفة الوقع على النفس والسمع
ومعاني تدعو إلى الترهيب والانقطاع عن الدنيا وهي على بساطة معانيها تلمس
من النفس الإنسانية أعمق أحاسيسها وتثير في القلب مشاعر الهلع والخوف من
سوء المصير وفي العقل الميل إلى التأمل، والتفكير العميق، وذلك باعتمادها
عنصر التناقض الفطري بين الحياة والموت والنور والظلمة وغير ذلك.

أي إن عقلية قس بن ساعدة كانت عقلية تكاملية تستوفي الأشياء جميعها،
بإحضار الشيء ونقيضه، لكي تكتمل الصورة أمام أبصار السامعين، أو القارئ،
ولا تستوجب هذه الخطبة أية تقاليد مما ذكر في الخطبة الحماسية وإن كان قس قد
ادخل تقاليد الخطبة الحماسية في الخطبة في الخطبة الوعظية ثم الموسمية وذلك
لأنه على زعم الرواة أول من خطب بين الناس وهو فوق جمل، فقال الباحثون إن
قساً أول من ابتكر الخطبة على مرتفع من الأرض واعتمد على عصاه فصار ذلك
تقليداً وعليه فكان كل خطيب يحمل في يده العصاء عند خطبته حتى أصبح عرفاً
عند الخطباء العرب قبل الإسلام وبعده .

ولا يفوتني إن أذكر في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام ما قاله سيدنا
الحسن رضي عنه وأرضاه وعليه السلام : ((أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن
المعمر ؟

(١) الجاحظ، البين والتبيين ، جـ ١، ص ٢٧.

قالوا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا انبئكم بخياركم ؟)

قالوا : بلى يا رسول الله

قال : أطولكم أعماراً في الإسلام إذا سدّدوا (١)

وزعموا ان تَبَعَا الفزاري كان من المعمرين وانه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة في فترة عيسى بن مريم عليه السلام في الجاهلية وستين في الإسلام قال له أخبرني عما رأيت في سالف عمرك ؟

قال: رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة و يوماً في أثر يوم ورأيت الناس في جامع مال مفروق ومفروق مال مجموع، وبين قوي يظلم وضعيف يُظلم، وصغير يكبر وكبير يهرم، وحي يموت، وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود، ومحزون بمفقود.

ومن خطباء العرب المشهورين الملبب بن عوف بن سلمة بن عمرو الجعفي وهذا نموذج من خطبة ألقاها يواسي أحد الخطباء الذي فقد ولده وكان مسروراً به ولكن ركب ذات يوم فرساً صعباً فكبايه فرسه فوقصه فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً، وامتنع عن الطعام، واحتجب عن الناس واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه فقام خطبائهم يؤسونه، ومنهم الملبب فقال: في حضرة الملك سلامة ذي فايش، الذي فقد وله هذا، وكان الملك هذا أيضاً من خطباء العرب انذاك فقال: (أيها الملك، ان الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتحلي لتمر، وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب وكل مصيبة تخطأتك جليل، ما لم تدن الآجل و تقطع الأمل وان حادثاً ألم بك فاستبد بأقلك، وصفح على أكثرك لمن أجل النعم عليك، وقد تاهت إليك انباء من رزء فصبر، وأصيب فاغتر، إذ

(١) الابشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت. ٨٥٠هـ / ١٤٤٥م) المستطرف من كل فن

مستطرف، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٨٩م) ص ١٠٤، ص ٩٤.

كان شوي^(١) فيما يرتقب ويحذر فاستشعر اليأس عما فات إذا كان ارتجاعه ممتعا ومرامه صعبا، فلشيء ما ضربت الأسي، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء .
ومن الخطباء العرب المشهورين :

أبو طالب^(٢) بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم

التعريف به مع نموذج لإحدى خطبه .

أبو طالب والد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المتوفى سنة (٣٠٣ هـ / ٦٢٠ م) واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم من قريش وكافل النبي ومربيه ومناصره، كان من أبطال بني هاشم من قريش ورؤسائهم ومن الخطباء العقلاء وله تجارة كسائر قريش. نشأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وسلم في بيته وسافر معه إلى الشام في صباه بتجارة، دافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وسلم في دعوته وحماه، وصد قريش من الاعتداء على ابن أخيه ولد بمكة وتوفي سنة ٣٠٣ ق. هـ وقيل اسمه عمران وقيل اسمه ذا الكفل وقيل اسمه شيبه .

وان أشرف مثل نستشهد به هي خطبة أبي طالب بن عبد المطلب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة بنت خويلد فهي انضج ما لدينا من خطب الزواج في أخريات العصر الجاهلي حيث قال:

(١) شوي بمعنى هين ، يسير و الشوي أيضا رذال المال. (ينظر : أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٣٥٢) . ينظر : أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٣٥٢

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ١٦١ . اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٤ ، ص ١٤٢ الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ٣١٥ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ٣١٥ الجنابي ، عبد الكريم إبراهيم دوحان ، انساب الطالبين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد التاريخ العربي للدراسات العليا ، (بغداد ، ١٩٩٩ م) ، ص ٣٤ .

(الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوبا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم ان محمد بن عبد الله، ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه، برأ وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا. وان كان في المال قل، فانما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلي^(١))

وأبقى لنا التاريخ على صيغة كانت قريش ترددها في أثناء خطبة النساء في الجاهلية فتقول:

باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف باسمك اللهم ولك ما سألت، ولنا أعطيت^(٢) ويبدو ان هذا النص كان مقدمة تقليدية للخطبة ثم يأتي المضمون أما عبارة (الحمد لله) التي وردت في الخطبة أي خطبة أبو طالب أو (بسم الله) فهما صيغتان إسلاميتان، ولا ندري ان كان الرواة المسلمون قد أبدلوها في خطبة أبي طالب، أم ان الرسول صلى الله عليه وسلم اقترحها على عمه يومئذ، وأما سبب قيام أبي طالب خطيبا في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم مع ان الرسول هو من هو في العلم والمعرفة، والبيان فسيبه انهم جرت العادة بينهم إذا أراد عظيم من عظماتهم أو شريف من أشرافهم ان يتزوج، قام كبير من أهله أو سيد من عشيرته ليخطب باسمه الفتاة التي اختارها لنفسه شريكة حياته .

وقد بقي تقليد خطبة الزواج لدى الأمويين حتى زوال خلافتهم . ومن خطباء العرب المشهورين قبل الإسلام :

(١) الباقلائي ، أبو بكر محمد بن الطيب، (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م)، اعجاز القرآن ، ط ٢ ، دار الندوة الجديدة ، (بغداد ، ١٩٧٠) ، ص ١٢٦. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج ١ ، ص ٢١٣ ، أحمد الحلبي، السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ١٣٣ ، أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطبة العرب ، ج ١ ، ص ٧٧ ،

(٢) الجاحظ ، البيان و التبیین ، ج ١ ، ص ٤٠٨

هانئ بن قصبية ^(١) الشيباني .

هو هانئ بن قصبية بن هانئ مسعود الشيباني ، أحد الشجعان العرب الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي كان سيد بني شيبان، وأسرته وديعة اليربوعي يوم الغبطين في الجاهلية وهو بين تميم، وشيبان ظفرت فيه تميم وأسر هانئ، أدرك الإسلام و لم تشر المصادر إلى وفاته، وانما أشارت إلى انه توفي في الكوفة وهذا غير صحيح لان المتوفى بالكوفة هو هانئ بن عروة وهذا ما يؤيده ابن حزم في الجمهرة وهو ان عبيد الله بن زياد بن ظبيان المتوفى سنة ٧٥ هـ — كان زوج (الزعام) بنت إياس ابن شعبة بن هانئ

نموذج لإحدى خطبه في موقعة ذي قار يحرض قومه على قتال الفرس .

(يا معشر بكر، هالك^(٢) معذور خير من ناج فرور، ان الحذر لا يتجي من القدر، وان الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنيا، استقبل الموت خير من استبداره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور، قاتلوا فما للمنايا من بد).

ومن خطباء العرب المشهورين والمعمرين حكيم العرب وقاضي الصحراء :

أكثم بن صيفي

هو أكثم^(٣) بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخشان بن معاوية بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم و قيل انه أكثم بن صيفي بن عبد العزى سعد بن ربيعة بن

(١) ينظر : الجاحظ ، البيان و التبیین ، جـ ٣ ، ص ١٦١ . الزركلي ، الاعلام ، جـ ٩ ، ص ٥٢
(٢) ينظر : أبو علي القالي ، الامالي ، جـ ١ ، ص ٩٢ . أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب

، جـ ٧ ، ص ٣٧ ،

(٣) ينظر : المسجستاني ، المعمرون ، ص ١٠ ، و قيل (رياح بالباء الموحدة كما ورد عند ابن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة ، جـ ١ ، ص ١١٣) . أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب

العرب، جـ ، ص ٣٧ .

أصرم من ولد كعب بن عمرو بن تميم وقيل انه اكرم بن صيفي بن عبد عزي بن ربيعة بن اصرم من ولد كعب بن عمرو^(١) كان أكثر على ما تروي المصادر التاريخية من المعمرين إلا ان تلك المصادر تختلف في تحديد الفترة الزمنية التي عاشها ففي كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني انه عاش ٣٣٠ سنة لكن السجستاني يعود فيقول وقيل ١٩٠ سنة^(٢) وجاء في المستطرف انه^(٣) عاش ٣٦٠ سنة فنحن نرى اختلافاً واضحاً بين الروايات ومهما يكن من أمر فان الرجل عمر طويلاً يدل على هذا خطبته في يوم الكلاب الثاني اذ جاء فيها انه نيف على التسعين ونحن نميل الى رواية السجستاني الثانية من انه عاش ١٩٠ سنة وأدرك الاسلام وقصد المدينة في مائة من قومه، يريدون الإسلام، وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه ولكنه توفي قبل ان يرى النبي محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وهو المعني في قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً)^(٤)

أخباره كثيرة ولعبد العزيز بن يحيى الجلودي في كتاب أخبار أكثر من كلامه (من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ، ومن لم يعتبر فقد خسر).

وقد توفي أكثر بعد ان أدرك الاسلام ولكنه لم يسلم لانه توفي في الطريق الى المدينة لملاقاة الرسول الكريم وفي قصة سفره الى المدينة اختلاف: فقد أورد أبو حاتم السجستاني في كتابه المعمرين، انه نادى في قومه فتبعه منهم مائة رجل حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال، كره ابنه (حبيش) مسيره فأدلى

(١) ينظر: الجاحظ، البيان و التبيين، ج ٣ ، ص ٢٥٥ ، الأعلام للزركلي ، ج ١ ، ص ٢٤٤

(٢) ينظر: السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي (ت ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م) ،

كتاب المعمرين والوصايا، مطبعة السعادة ، (القاهرة ، ١٩٠٥ م) ، ص ص ١٠ - ١١

(٣) ينظر: الابشهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد ، (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٥م)، المستطرف في كل

فن مستطرف، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، ١٩٨٩ م) ، ج ٢، ص ٣٣

(٤) سورة النساء من الآية رقم (١٠٠)

على اهل أصحاب أبيه فنحرها وشق قريهم ومزاداتهم فأصبحوا ليس معهم ماء، ولا ظهر، فجدهم العطش وأيقن أكتّم بالموت فقال لاصحابه، أقدموا على هذا الرجل فاعلموا باني أشهد ان لا إله إلا الله وانه رسول الله. وفي كتاب أسد الغابة انه لما بلغ أكتّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليه رجلين يسألونه عن نسبه وما جاء به فأخبرهما، وقرأ عليهما (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظم لعالمكم تذكرون)^(١) فعادوا الى أكتّم وقرأوا عليه الآية فلما سمع أكتّم ذلك قال يا قوم أراه يأمر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا أذئابا، وكونوا فيه أولا ولا تكونوا آخرا، فلم يلبث ان حضرته الوفاة، فأوصى أهله: أوصيكم بتقوى الله وصلوة الرحم، فانه لا يبلى عليها أصل، ولا يهتصر عليها فرع^(٢)...

وفي مجمع الأمثال للميداني^(٣) انه لما ظهر النبي بمكة بعث أكتّم ابنه حبيشا فأتاه بخبره، ونحن نرى الاختلاف واضحا فهي بين مكة والمدينة تارة وهي بين رجلين من قومه وابنه حبيش تارة أخرى، ونحن نميل الى الرواية التي تقول انه أرسل ابنه الى الرسول الكريم لقوله في خطبته (ان ابني شافه هذا الرجل مشافهة^(٤)) وهذا ما يرويه المدائني في كتابه مجمع الأمثال وكذلك اختلفت المصادر في تفسير الآية ١٠٠ من سورة النساء التي يقال انها نزلت بحق أكتّم (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله عليما خبيراً) فقد جاء في تفسير ابن كثير انها نزلت بحق ضمرة بن

(١) سورة النحل آية رقم (٩٠).

(٢) ينظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)، اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد ابراهيم البنا واخرون، مطابع دار الشعب (القاهرة، ١٩٧٠م) ج ١، ص ١١٢.

(٣) ينظر: الميداني، مجمع الامثال، ج ٢، ص ٢٦٧.

(٤) ينظر: ابو حاتم السجستاني، كتاب المعمرين والوصايا، ص ١٠.

جندب الليثي أو خالد بن حزام وفي مجمع البيان والجلالين انه جندع ابن ضمرة ويشير تفسير ابن عباس إلى انها نزلت بحق أكتّم بن صيفي ثم نزلت في جندب بن ضمرة وجاء في أسباب النزول للسيوطي انها نزلت في حبيب بن ضمرة وكان شيخا كبيرا حمله بنوه على السرير متوجها الى المدينة فلما بلغ التعيم أشرف على الموت فصفق يمينه على شماله وقال اللهم هذه لك وهذه لرسولك، الا ان المصدر نفسه يذكر انها نزلت بحق أحد الناس من بكر لم يستطع ان يشهد بدرا فمات في الطريق^(١) وعليه فقد توفي أكتّم سنة ٦٣٠م إلا ان الدكتور عمر فروخ يرى انه توفي سنة ٦١٢م بعد ان أسن كثيرا وقد تبوأ في تميم منزلة^(٢) عظيمة فكان خطيبها المفوه وحكيما الصائب وكان عالما بانساب العرب، وأخبارها. لا جدال ان أكتّم يعد من خطباء الجاهلية المشهورين، وخطبه تمثل ما وصل إليه العرب من فصاحة في الاسلوب وجودة في التعبير، ولا بد هنا ان نشير الى مقالة المرحوم طه حسين عن الخطابة من انها (لم تكن شيئا ذا غناء وانما الخطابة العربية فن إسلامي خالص)^(٣)، وحديث طه حسين هنا شأنه شأن أحاديثه عن الكثير من أمور الادب الجاهلي. وإذا أردنا ان نعالج الأساليب الفنية لخطب أكتّم نجد انها لا تخرج في الغالب عما يقال عن الخطابة الجاهلية من انها تعتمد الفطرة، وعبقو الخاطر، وانها منفرطة الافكار غير متماسكة الأجزاء تعتمد الجمل المحكمة الاداء مع عناية غير مقصودة بالسجع والتكرار، وكلام أكتّم في هذا الفن نثار منثور، وأفكار ملتزمة من غير رابط ولا جامع، وانه لمن الصعب، بل من

(١) ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ابي بكر الشافعي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) باب النقول في أسباب النزول، تعليق: محمد كريم بن سعيد راجح، ط ١، مكتبة النهضة (بغداد، ١٩٤٨م)، ص ١٠٢.

(٢) ينظر: بروكلمان، كارل، تاريخ الادب العربي، ترجمة: د. عبد الحلیم النجار. مطابع دار المعارف (مصر، ١٩٦٨) ج ١، ص ٢٠١.

(٣) ينظر: الدكتور طه حسين: في الادب الجاهلي، ص ٣٣١.

المستحيل جمع تلك الافكار في تسلسل منطقي. وفي خطبه جزالة ووضوح واستعانة بالبراهين المقنعة^(١) وعليه فنلاحظ، ان خطب أكرم تمتاز بالجمل القصيرة والحكم المتأثرة غير المتسلسلة والتكرار من أهم ما يميز أسلوب هذا الرجل

نموذج من إحدى خطب أكرم في قومه عند سماعه بالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام (يا بني تميم، لا تحضروني سفيهاً، فانه من يسمع يخل ان السفينة يوهن من فوقه ويثبط من دونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه وان رأيتم مني غير ذلك فقوموني استقم، ان ابني شافه هذا الرجل مشافهةً وأتاني بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق، ويدعو الى توحيد الله تعالى، وخلص الاوثان، وترك الحيف بالنيران، وقد عرف نوو الرأي منكم ان الفضل فيما يدعو اليه، وان الرأي ترك ما ينهى عنه، ان أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره انتم، فان يكن الذي يدعو حقا فهو لكم دون الناس وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته وكان سفيان مجاشع يحدث به قبله وسمى ابنه (محمدأ) فكونوا في أمره أولا ولا تكونوا آخرأ أتوا طائعين قبل ان تأتوا كارهين، ان الذي يدعو اليه محمد لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً، أطيعوني واتبعوا أمري أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً وأصبحتم أعز حي في العرب، وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً فاني أرى أمرا لا يجتبه عزيز إلا ذل، ولا يلزمه ذليل إلا عز، ان الاول لم يدع لآخر شيئا وهذا أمر له ما بعده من سبق اليه غمر المعالي، واقتدى به التالي،

(١) ينظر: الدكتور احمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ٤٨.

والعزيمة حزم والاختلاف عجز، فقال مالك بن نويرة ^(١) قَدْ خَرَفَ شَيْخُكُمْ فَقَالَ أَكْثَمُ
وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ، وَالْهَفِيِّ عَلَى أَمْرِ لَمْ أَشْهَدُهُ وَلَمْ تَسْبِقْنِي ^(٢)

وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ عدداً كبيراً من الحكم والامثال التي كان أكثم
ابن صيفي يستخدمها في خطبه التي أطلقها أكثم منها قوله (لا تغضبوا من
اليسير فإنه يجني الكثير)، (آفة العلم النسيان، أكرم أخلاق الرجال العفو)، (ان
المناخ خيرها الابكار ، لكل مقام مقال)، (رب قول انفذ من صول) ^(٣)

^(١) مالك بن نويرة: هو مالك بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي، شاعر من ارداد
الملوك في الجاهلية يقال له فارس ذي الخمار، ادرك الاسلام واسلم ثم ارتد عن الاسلام ولاه
الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) على صدقات بني يربوع وقتل من قبل ضرار بن الازور
الاسدي بتوجيه من خالد بن الوليد نحو ١٢هـ / ٦٣٤. الزركلي، الاعلام، ج٦، ص ١٤٥

^(٢) ينظر: الميداني مجمع الامثال، ج٢، ص ٣٦٧.

^(٣) ينظر: ابن قتيبة عيون الاخبار ، ج١، ص ١٠٨. ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد،
ج٢، ص ص ١١-١٢. ابو علي القالي، الامالي، ج٢، ص ٢٦ و٧٥ و١٦٨. د. مظفر
جواد، المفصل في تاريخ العرب، ج٨، ص ٧٩٤.